

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

حينَ تَمْتَحِنُ العاصِفَةُ جذورَ الإيمانِ

— رحلةٌ من هَشاشةِ التعلُّقِ إلى صخرةِ التوَكُّلِ —



المؤلف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ
حين تُمتحنُ العاصفةُ جذورَ الإيمانِ
رحلةٌ من هشاشةِ التعلّقِ إلى صخرةِ التوكّلِ
المؤلف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

البيوت التي تسقط... والبيت الذي لا يزول

ليست كل البيوت جدراناً تُرى؛ ففي داخل كل إنسان بيتٌ خفيٌّ يأوي إليه حين يخاف، ويستند إليه حين تضيق به الأرض، ويعلق على سقفه رجاءه، ويخفي بين زواياه معنى نجاته. قد يكون ذلك البيت مائلاً، أو جاهاً، أو شخصاً، أو جماعة، أو قوة، أو فكرة، أو وهماً جميلاً يتخذ القلب مأماً من قسوة الوجود. ثم تأتي الفتنة.

لا تأتي الفتنة دائماً لتؤلم الإنسان فحسب، بل لتطرق جدران ذلك البيت الخفي، وتسأل القلب سؤالاً لا يستطيع أن يجيب عنه بالكلمات: أهذا الذي احتميت به قادرٌ حقاً على أن يحميك؟

هناك، تحت مطارق الابتلاء، تكشف مواد البناء. ما حسبناه صخرة قد يكون خيطاً، وما ظنناه سقفاً قد يكون نسيجاً معلقاً في فراغ، وما سميناه حصناً قد لا يحتمل قطرة مطر واحدة. فالشدائد لا تصنع هشاشتنا دائماً؛ كثيراً ما تفضح هشاشة كانت مستترة وراء سكون الأيام.

ومن هنا تبدأ سورة العنكبوت: من امتحان الكلمة قبل أن تستقر في مقام الحقيقة. إنها سورة تنزع عن الإيمان زينته اللفظية، ثم تعيده إلى أصله الحي: موقفاً يدفع ثمنه، ويقيناً يعبر النار دون أن يحترق، وهجرةً يترك فيها المؤمن بعض الأرض كيلا يترك ربه، ومجاهدةً طويلة تنتقل بالروح من وهم الاتكاء على الخلق إلى طمأنينة الاعتصام بالخالق.

وفي قلب السورة يقف بيت العنكبوت؛ صورة صغيرة، لكنها تختصر مأساة الإنسان كلها. خيوط متشابكة تبدو للناظر بناءً، وحركة دقيقة توهم بالنظام، واتساع قد يخدع العين، لكنه بيتٌ لا يصدُّ ريحاً، ولا يمنع حراً، ولا يحفظ ساكناً. وهكذا كل ما اتخذ

من دون الله: قد تتعدّد خيوطه، وتتعقّد علاقاته، ويحسن أصحابه نسجه، لكنه يظلّ عاجزاً عن منح القلب ما لا يملكه إلا الله.

السورة لا تدعونا إلى أن نهدم أسباب الحياة، بل إلى ألا نرفعها إلى مقام الإله؛ أن نأخذ بها بأيدينا، ولا نسكن إليها بقلوبنا؛ أن نعرف للخلق أقدارهم، دون أن نمنحهم شيئاً من خصائص الخالق. فالأسباب أبواب، ولكن الله هو الفاتح. والناس رفقة، ولكن الله هو الحافظ. والأرض ممرّ، ولكن إليه المصير.

إنها رحلة طويلة تبدأ بالسؤال المرعب:

هل يكفي أن يقول الإنسان: آمنت؟

وتنتهي بالوعد المضيء:

أن الذين يجاهدون في الله لن يتركهم الله في متاهة الطريق، بل سيفتح لهم السبل، ويصحبهم بمعيتة، حتى تصل أرواحهم المتعبة إلى برّ اليقين.

الفصل الأول

حين توضع كلمة الإيمان في النار

تفتتح السورة بأحرف مقطّعة:

﴿الم﴾

كأنها وقفةٌ مهيبّة قبل انكشاف المشهد؛ حروف يعرفها العرب، لكنهم يقفون أمام نظمها عاجزين. ومن المادة التي يتداولها الناس في كلامهم يُنشئ الله كلاماً لا يقدرّون على الإتيان بمثله. وكأن مطلع السورة يهيئ النفس لحقيقة ستكرر في ثناياها: ليس الشأن في ظاهر الأشياء، بل في السرّ الذي يودعه الله فيها. الحروف هي الحروف، ولكن القرآن ليس كلاماً كسائر الكلام؛ والإنسان هو الإنسان، ولكن الإيمان إذا خالط قلبه أنشأ منه خلقاً آخر.

ثم يأتي السؤال الذي يهزُّ الطمأنينة الساذجة:

﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾

إن أخطر ما في الوهم أن يظنّ الإنسان أن الكلمة تكفيه عن حقيقتها؛ أن يقول: آمنت، ثم ينتظر من الحياة أن تفرش له الطريق بالسكينة، وألا تمسّ عقيدته خسارة، وألا يعبر يقينه امتحاناً، وألا يطلب منه أن يختار بين راحته وربّه.

لكن الإيمان ليس كلمة تُعلّق على جدار الهوية؛ إنه عهدٌ يعاد تشكيل الحياة كلّها على مقتضاه. وما دام ادعاء الإيمان ممكناً لكل لسان، فإن الفتنة تأتي لتمييز الكلمات التي خرجت من أفواه أصحابها، من الكلمات التي خرجت من أعماق أرواحهم.

الفتنة نار، ولكنها ليست نار الإهلاك دائماً؛ إنها النار التي تميّز الذهب من التراب، وتكشف ما إذا كان الإيمان لوناً على سطح النفس أم معدناً ممتدّاً في أعماقها. ولهذا لم تقل الآية: أَحْسِبَ الْمُؤْمِنُونَ، بل قالت: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ﴾؛ لأن المسافة بين دعوى الإيمان وحقيقته لا يقطعها اللسان، وإنما تقطعها القدم حين يشتد الطريق.

قد يقول الإنسان: آمنت بالله، ما دام رزقه جارياً، وصحته موفورة، ومكانته مصونة، وأحبته حوله. لكنه حين يُمسّ في بعض ذلك، يبدأ السؤال الحقيقي: هل كان يؤمن بالله، أم كان يؤمن بالحياة المريحة التي جاءت في صحبة الإيمان؟

الابتلاء لا يسألنا دائماً: هل نعرف الله؟ بل يسألنا: هل يبقى الله أكبر في قلوبنا حين تصغر الدنيا من حولنا؟ هل نراه كافياً حين تتخلّى عنا الأشياء التي توهّمنا أنها تكفيها؟ هل نحفظ له مقامه حين لا نفهم حكمته؟

إن كثيراً من الناس لا يتركون الإيمان دفعةً واحدة، لكنهم يشترطون على الله شروطاً خفية: أن يؤمنوا به ما دام يحفظ لهم الصورة التي رسموها لحياتهم. فإذا غير الله الصورة، اضطربت علاقتهم به؛ كأنهم لم يعبدوا رباً حكيماً، بل عبدوا توقعاتهم عنه.

وتأتي الفتنة لتطهر الإيمان من هذه الشروط.

إنها تنقل المؤمن من قوله: «يا رب، سأثق بك إذا جرت الأحداث كما أحب»، إلى مقام أصفى: «يا رب، سأثق بك لأنك أنت الله، سواء فهمتُ الطريق أم لم أفهمه». وهنا يولد اليقين.

ليس اليقين أن ترى الحكمة دائماً، بل أن تعرف حكمة من لا تراها. وليس أن تخلو الطريق من الظلام، بل أن تمشي وفي قلبك نور معرفة الدليل.

ثم تقول السورة:

﴿وَلَقَدْ فِتْنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾

إن الفتنة ليست حادثةً طارئةً في تاريخ الإيمان، بل سنةٌ ممتدة في قافلة المؤمنين. كل من سار إلى الله وجد في الطريق موضعاً يُطلب منه فيه أن يبرهن أن وجهته ليست ادعاءً. إبراهيم دخل النار، ونوح حمل دعوته قروناً في بحر التكذيب، ولوط وقف بطهره وحيداً في مدينة ملوثة، وشعيب واجه اقتصاداً بنى قوته على الفساد، وموسى خرج مستضعفاً أمام طغيانٍ بلغ به الغرور أن نازع رب العالمين.

وكان السورة تقول للمبتلى: لست أول من أظلمت أمامه المسافة. إن آثار أقدام الأنبياء والصادقين ما تزال على هذا الطريق. لا تجعل الألم يقنعك أن الله تخلى عنك؛ فقد يكون الألم نفسه علامةً على أنك دخلت الطريق الذي عبره أحبّاءه.

﴿فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾؛ ليس علماً يسبقه خفاء، تعالى الله عن ذلك، وإنما ظهور الحقيقة في عالم الواقع، حتى يصير ما في القلب تاريخاً مشهوداً، وتتحول النيات المستترة إلى مواقف قائمة. فالصدق الذي لا يخرج من الضمير إلى الحياة يظلّ دعوى غير ممحصّة.

ما أيسر الصدق حين لا يكلف شيئاً، وما أندر الصادقين حين يصبح للحقيقة ثمن! عندها ينقسم الناس: فريقٌ كان يحمل الإيمان، وفريقٌ كان يحمله الإيمان. الأول يضعه إذا أثقل كاهله، والثاني يضع عليه أثقاله كلّها فيجد أنه يحملها ويحمله.

ثم تسأل السورة أولئك الذين يمارسون الشر، كأنهم خارجون عن سلطان الله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

يا لها من صورة! إنهم يركضون في الأرض، يظهرون، ويمكرون، ويحسبون أن سرعة الحركة نجاة، وأن تأخر العقوبة إفلات، وأن غياب اليد التي توقفهم يعني غياب العين التي تراههم.

لكن إلى أين يسبقون؟

هل يستطيع مخلوق أن يخرج من ملك الله وهو يجري على أرضه، ويتنفس من هوائه، ويعيش بقوته؟ إن هرب إلى البحر وجد سلطان الله، وإن صعد الجبل سبقه الله إليه، وإن احتمى بالناس كانوا جميعاً تحت قهر الله. ليس للظالم خارج ملك الله موضع يحتجّ فيه، ولا وراء علمه ظلمة يذوب فيها.

إنما يُمهّل كي يكشف كل ما في داخله، ويمدّ حبل اختياره إلى نهايته، ثم يرخذ لا لأن الله أدركه بعد فرار، بل لأنه لم يكن لحظةً واحدة خارج القبضة.

﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾؛ لأنهم قاسوا قدرة الله بحدود البشر، وحسبوا حله عجزاً، وستره غفلة، وتأخيره نسياناً. وما علموا أن الزمن الذي يتوهمون أنهم يفرون فيه، هو نفسه الذي يسوقهم إلى الموعد.

وهكذا تضع الآيات الأولى فريقين أمام حقيقتين متقابلتين: المؤمن يُفْتَن فلا يظن أن الله نسيه، والمجرم يُمَهِّل فلا يظن أنه سبق الله. هذا لا ينبغي أن يفسّر الألم بأنه هجر، وذلك لا ينبغي أن يفسّر الإمهال بأنه نجاة.

فالله مع المبتلى وإن تأخر الفرج، والله محيط بالظالم وإن تأخر الأخذ. وبين تأخر الفرج وتأخر العقوبة تُختبر البصائر: أيُّ قلب يرى وراء ستار الوقت، وأيُّ قلب لا يؤمن إلا بما تراه عيناه؟

الفصل الثاني

الرجاء الذي يفتح نافذةً في جدار الألم

بعد أن تحدّثت السورة عن الفتنة، لم تترك القلب وحيداً تحت وطأتها، بل فتحت له نافذة الرجاء:

﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

لقاء الله هو المعنى الذي يمنح الطريق قدرته على الاحتمال. فالإنسان لا يصبر على وعناء السفر إلا إذا كان في نهاية الطريق من يحب. وكلما عظم المنتظر، هانت مشقة الانتظار.

من كان يرجو لقاء الله لا يرى الدنيا داراً نهائية، ولا يتعامل مع خساراتها كأنها الخاتمة. قد يُظلم هنا، لكنه يعرف أن وراء هذه المحكمة المرتبكة محكمة لا يضيع فيها حق. وقد يُحرم هنا، لكنه يعلم أن خزائن الله لا تنفد. وقد يفقد حبيباً، لكنه لا يرى الموت جداراً مصمتاً، بل باباً تأجل وراءه اللقاء.

﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾؛ سيأتي الموعد الذي تنطفئ عنده أسئلة الطريق، وتنكشف الحكمة التي كانت مستترة خلف حجب الألم. سيأتي، ولو استبطأته القلوب. فواعيد الله لا تتعثر، ولا تضع في زحام الحوادث، ولا يحول بينها وبين أصحابها سلطان. ثم يأتي الاسمان اللذان يحتضنان وحشة المنتظر:

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

يسمع الأنين الذي لم يتحول إلى صوت، ويعلم الحرب التي يخوضها المؤمن في صدره ولا يراها أحد. يسمع الدعاء حين تتكسر عباراته، ويعلم الحاجة قبل أن يحسن العبد وصفها. ليس في قلبك وجعٌ يحتاج إلى بلاغ كي يصل إليه، ولا دمةٌ ضاعت لأنها نزلت في غرفة مغلقة.

ثم تقول السورة:

﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾

الله لا يطلب من الإنسان المجاهدة ليستكثر بها من قوة، فهو الغني الذي لا تزيد في ملكه طاعة، ولا تنقص منه معصية. إنما يجاهد الإنسان لينقذ نفسه من نفسه؛ ليحرر روحه من أثقال الهوى، ولينزع الوهن من أن يصير قدراً، وليشق في داخله طريقاً يصل به إلى الله.

كل معركة يخوضها المؤمن ضد شهوة تذله، أو خوف يشله، أو باطل يساومه، أو يأس يريد ابتلاع قلبه، إنما يعود نفعها إليه. فالله لا ينتفع بثباتنا، نحن الذين نصير بالثبات أهلاً للقرب منه.

وهنا تبدل صورة التكليف: ليس أمر الله قيدياً على الإنسان، بل تحريراً له. ليست العبادة حاجةً إلهية إلى البشر، بل حاجة البشر إلى الله. نحن لا نحمل الدين رحمةً به؛ الدين هو الذي يحملنا من التبدد إلى الوحدة، ومن العبوديات المتناثرة إلى عبودية الواحد، ومن الخوف من كل شيء إلى الطمأنينة بمن يملك كل شيء.

ثم يفيض الوعد:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

إن الله لا يستقبل عباده الصادقين بدفاتر الزلل وحدها، بل يفتح لهم أبواب المحو. وحين يقول: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ﴾ تشعر الروح أن الرحمة لا تكفي بأن تغفر الجرح، بل تستره حتى كأنه لم يكن.

أما الجزاء، فلا يكون على قدر العمل المهش الخارج من الإنسان الضعيف، بل على قدر كرم الرب الذي قدّم إليه العمل. يأخذ الله من عبده لحظة إخلاص ربما لم ينتبه إليها الناس، فينميها، ويزكيها، ويجعلها عنواناً على حياته؛ لأن الله لا يزن الأعمال بأحجامها الظاهرة وحدها، بل بما استقرّ في أعماقها من صدق.

وهكذا، منذ مطلع السورة، نتضح ملامح الرحلة: فتنة تكشف، ورجاء يثبت، ومجاهدة تطهر، ورحمة تحو، ولقاء آت لا يخلف الله مواعده.

إنها لا تعد المؤمن بطريق بلا أشواك، لكنها تمنحه قدماً لا تستسلم للنزف؛ ولا تعدّه
آلاً يبكي، لكنها تعلّمه أن الدموع لا تعني الهزيمة؛ ولا تقول له إن البيوت الواهية لن
تغريه، لكنها تضع في قلبه بصيرةً يميّز بها بين خيط العنكبوت وحبل الله المتين.
ومن هنا ستدخل السورة إلى امتحان أشدّ قرباً من القلب: امتحان الوالدين،
والعلاقات، والضغوط التي تأتي متخفيةً في ثياب المحبة؛ لتعلّم الإنسان أن الإحسان
إلى الخلق لا يعني أن يمنحهم موضع الخالق، وأن أشدّ الفتن خطراً ليست دائماً تلك
التي تهجم علينا بوجه العداوة، بل التي تدخل إلينا من أبواب الودّ.

الفصل الثالث

حين تأتي الفتنة بصوت نجه

ليست الفتنة كلها ذات وجه مخيف. بعضها لا يأتيك بسيفٍ مرفوع، بل بيدٍ حانية؛ لا يصرخ فيك من وراء جدار العداوة، بل يناديك من داخل البيت؛ لا يطلب منك أن تترك إيمانك باسم الباطل، وإنما باسم المحبة، والقربة، والبر، والخوف عليك. وهنا يكون الامتحان أدق وأشدَّ إيلاً؛ لأنك لا تختار بين من تحب ومن تكره، بل بين حق الله ورضا من تحب.

تقول السورة:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

بدأت الآية بالحسن؛ كيلا يتحول الثبات على العقيدة إلى قسوة، ولا يصبح رفض الباطل ذريعةً لقطع الرحمة. فالقرآن لا يطلب من المؤمن أن ينتصر للحق بخلق يناقض الحق، ولا أن يصون توحيده بتزيق إنسانيته. إن للوالدين مقاماً عظيماً من الإحسان، حتى إن اختلاف الطريق لا يستقط حق الصلابة، ولا يحو ذاكرة التعب، ولا يبيح للقلب أن يتنكر لمن كانا سبباً في وجوده. ولكن للعبودية حداً لا يتجاوزه أحد.

فإذا تحولت المحبة إلى سلطة تريد أن تدخل بين القلب وربّه، وجب أن تقف عند باب التوحيد. لا بعنف ولا بفجور، بل بثبات لا يخني. أحسن إليهما، اخفض لهما جناح الرحمة، احتمل أذاهما، خاطبهما بأرق ما تستطيع من الكلام؛ لكن لا تمنحهما مفاتيح الموضع الذي لا يملكه إلا الله. إنها معادلة قرآنية بالغة الرهافة: لا طاعة في الشرك، ولا قطيعة بسبب الاختلاف. يبقى القلب موصولاً بالله، وتبقى اليد ممدودةً بالإحسان.

والتعبير ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ﴾ يكشف أن الضغط قد يبلغ أقصى درجاته، إلحاحاً، وعاطفةً، وعتاباً، وربما تهديداً وأذىً. وقد يُشعر المؤمن أنه عاقٌّ لمجرد أنه لم يتخلَّ عن يقينه، وأنه جاحدٌ للجميل لأنه لم يجعل رضا الناس فوق رضا الله. لكن الإيمان يعيد ترتيب المراتب: الإحسان للوالدين عبادةٌ لله، فلا يمكن أن تتحول العبادة نفسها إلى طريقٍ لمعصيته.

﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾؛ لأنَّ الشرك لا يقوم على برهان، مهما أحاط نفسه بمهابة التقليد، أو استند إلى كثرة الأتباع، أو لبس ثياب الموروث. إن كل ما سوى الله، إذا رُفِعَ إلى مقام الألوهية أو علِّقَ به القلب تعلّق العبادة، ليس وراءه علم، بل فراغٌ غطّاه التكرار، ووهمٌ منحه الزمن هيئة الحقيقة.

ثم تأتي العبارة التي ترفع النزاع كلّهُ من ضيق اللحظة إلى سعة المصير:

﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾.

ليس اختلاف الأخير إلى سلطة الأسرة، ولا إلى حكم المجتمع، ولا إلى ما تعارف عليه الناس؛ المرجع إلى الله. ستسقط الألقاب، وتراجع الروابط، ويقف كل إنسان أمام الحقيقة عارياً إلا من عمله. هناك لن يقول أحد: أطعتم لأنني خفت حزنهم، أو اتبعتم لأن الطريق الذي ساروا فيه كان أوسع الطرق. فالقربة لا تحمل عن الإنسان مسؤوليته، والمحبة لا تعفيه من موقفه.

﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ والإنباء هنا ليس مجرد إخبار بما وقع، بل كشفٌ لحقيقته: ما الذي كان إخلاصاً؟ وما الذي كان خوفاً متكرراً؟ ما الذي كان برّاً؟ وما الذي كان تنازلاً عن الحق تحت اسم البر؟ ما الذي دفعه الحب؟ وما الذي دفعه الضعف؟

إننا نعرف صور أعمالنا، لكن الله وحده يعلم سرائرها.

الفصل الرابع

العائلة الكبرى التي يصنعها الإيمان

بعد الحديث عن ضغط القرابة، تفتح السورة للمؤمن باب قرابةٍ أخرى لا تقوم على الدم، بل على النور:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾

لم تقل الآية: لندخلهم الجنة فحسب، مع عظمة هذا الوعد، بل قالت: ﴿فِي الصَّالِحِينَ﴾. وكأن من أعظم النعيم أن يجد الإنسان نفسه أخيراً بين الأرواح التي تشبه يقينه؛ حيث لا غربة، ولا تخزية من الطهر، ولا استهزاء بالثبات، ولا حاجة إلى أن يدافع المرء في كل لحظة عن أنقى ما فيه.

في الدنيا قد يشعر المؤمن بالغربة حتى بين أقرب الناس إليه. قد يكون له أهلٌ بالنسب، لكنه لا يجد فيهم أهلاً لسره الإيماني؛ وقد يجلس في مجلس ممتلئ ويشعر أن روحه وحيدة، لأن ما يعمر قلبه لا يجد صدقاً في القلوب المحيطة به.

فتأتي الآية وعداً بالعائلة التي لا تنفكك: ﴿فِي الصَّالِحِينَ﴾. في موكب الأنبياء والصديقين، في صحبة الذين دفعوا ثمن الحقيقة ولم يبيعوها، في الوطن الذي لا يشعر فيه الطاهر أنه غريب، ولا الصادق أنه ساذج، ولا الرحيم أنه ضعيف.

والدخول في الصالحين يبدأ من الدنيا قبل الآخرة؛ يبدأ حين يدخل الإنسان في صفاتهم، ويصبح الصلاح هيئةً لروحه لا زينةً لاسمه. فليس الصالح من يتحدث عن الصلاح، بل من أصلح الله به مواضع الفساد في نفسه، ثم فاض من إصلاحه شيء على العالم من حوله.

وقد جمع الله بين الإيمان والعمل الصالح؛ لأن الإيمان الذي لا يتحول إلى أثر يظل نوراً محبوساً خلف الزجاج. والعمل الصالح هو النافذة التي يخرج منها نور القلب إلى الحياة: صدقاً في موطن الكذب، ورحمةً في زمن القسوة، وأمانةً حيث صار الغدر ذكاءً، وثباتاً حين أصبح التلون مهارة اجتماعية.

الفصل الخامس

إيمانُ الحافّةِ

ثم تنتقل السورة إلى نموذج نفسي بالغ الدقة؛ إنسان لم يدخل الإيمان بكليته، بل وقف على بابه، يراقب ما سيعود عليه منه:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَّلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾

إنه يقول: ﴿آمَنَّا﴾؛ لكن صيغة الجمع على لسانه لا تخفي وحدة مصلحته. يدخل مع الجماعة حين تبدو القافلة سائرة نحو النصر، ثم يتراجع حين يرى الغبار والدم والجراح. هذا إيمان الحافّة: يضع صاحبه قدماً في طريق الحق، ويبقي الأخرى في أرض السلامة، حتى إذا هبت العاصفة عاد مسرعاً إلى حيث يظن النجاة.

﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾؛ لم تقل الآية: إذا عُدب عذاباً لا يطاق، بل قالت: ﴿أُوذِيَ﴾. فقد يكون الأذى كلمةً ساحرة، أو نظرة ازدراء، أو تهميشاً، أو خسارة منفعة، أو فتور علاقة. ومع ذلك يهتز قلبه؛ لأنه كان يريد إيماناً يمنحه احترام الناس، لا إيماناً قد يكلفه رضاهم.

ثم تقع المساواة الفادحة:

﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾.

يخاف أماً عابراً من الناس كما ينبغي أن يخاف عذاب الله، فيتنازل عن الأبقى فراراً من الأدنى. يرى يد المخلوق قريبةً فيهاها، ولا يستحضر سلطان الخالق لأنه مؤجل عن بصره. وهنا يظهر أن القضية ليست قوة العذاب وحدها، بل قوة الحضور في القلب: من كان أعظم حضوراً عندك، كان خوفك منه أشد.

قد يعرف الإنسان أن الله أكبر بلسانه، لكن سلوكه يكشف أحياناً أن الناس أكبر في شعوره؛ يخاف كلامهم أكثر من سخط الله، ويحرص على صورته في أعينهم أكثر من حرصه على منزلته عنده، ويرتجف من خسارة القبول الاجتماعي، ولا يرتجف من خسارة الصدق.

إن فتنه الناس محدودة: كلماتهم لها نهاية، وأذاهم محكوم بأجل، وسلطانهم لا يتجاوز ما أذن الله به. لكن القلب حين يفقد موازينه يضخم المخلوق حتى يملأ الأفق، ويصغر في وعيه حقائق الآخرة حتى تبدو بعيدة.

وإذا انقلب المشهد وجاء النصر، خرج المترددون من مخابئهم: ﴿لَيَقُولَنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾.

إنها «معية» بلا ثمن؛ يريدون حصّةً من النصر دون أن يكون لهم سهم في الصبر. غابوا يوم كان الطريق تهمةً، وحضروا حين صار مجداً. تبرؤوا من أهله حين كان القرب منهم عبثاً، ثم ادعوا صحبتهم حين أصبحت الصحبة مكسباً.

هكذا يعيش أصحاب المصالح على حوافّ المبادئ؛ لا ينكرونها إن انتصرت، ولا يدفعون ثمنها إن حوصرت. يتركون مسافةً بينهم وبينها تتيح لهم الفرار عند الخطر، ثم يطؤون تلك المسافة سريعاً عند الغنيمة.

لكن الله يعلم ما لا تراه الجماعة:

﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾.

قد يتقن الإنسان رواية تاريخه بعد النصر، ويحذف منه لحظات الخذلان، ويضع اسمه في قائمة السابقين؛ لكن ذاكرة السماء لا يعاد تحريرها. الله يعلم متى ارتجف قلبه، ومتى تراجع، ومتى أخفى شماته، ومتى انتظر لمن ستكون الغلبة.

إنه علمٌ يجعل الصادق مطمئناً؛ فقد يسيء الناس فهمه، لكن الله يعلم ما في صدره. وهو علمٌ يجعل المنافق خائفاً؛ فقد يحسن خداع الناس، لكنه مكشوفٌ أمام الله.

ثم تؤكد السورة أن الفتنة لا تخلط الصفوف إلى الأبد:

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾

لا بدّ أن يأتي الموقف الذي تتساقط فيه الأسماء وتبقى الحقائق. فالأيام الهادئة تسمح لكثير من المتناقضات أن تسكن تحت سقف واحد، لكن الزلزلة تفرز المعادن. عندها يُعرف من كان ثابتاً بالله، ومن كان ثابتاً ما دامت كلفة الثبات قليلة. الفتنة غربال الله في حياة الجماعات؛ مؤلمة، لكنها تمنع الصف من أن يظلّ مخدوعاً بالأعداد. ففي ساعات الرخاء يبدو الواقفون كثيرين، أما في ساعات الخوف فلا يبقى إلا الذين استقرّ الإيمان فيهم أعمق من غريزة النجاة.

الفصل السادس

لا أحد يحمل خطيئة أحد

ثم يظهر لون آخر من ألوان الإغراء؛ ليس تهديداً، بل عرضٌ يبدو مطمئناً: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾

كم يبدو الباطل واثقاً حين يدعو الآخرين إليه! يقول لهم: اتبعونا، ولا تخافوا العواقب، نحن نتحمل عنكم المسؤولية. وكأن الحساب عقدٌ اجتماعي يمكن نقل تبعاته من ذمة إلى أخرى، أو كأن الإنسان يستطيع أن يضع ضميمه في يد غيره ثم يمضي بريئاً.

إنها الجملة التي يكررها دعاة الضلال بصور شتى: افعَل، والمسؤولية علينا؛ أطلع، ولا تسأل؛ سر مع الجماعة، فلن تُحاسب وحدك؛ نحن أعلم منك؛ نحن نضمن لك النهاية. لكن عند موقف الحساب تذوب الجماعات المصطنعة، وينفرد كل إنسان بعمله. لا يستطيع زعيم أن يمنح أتباعه حسنةً واحدة، ولا أن يزيح عنهم سيئةً ارتكبوها باختيارهم. الذين طلبوا الطاعة المطلقة في الدنيا يتبرؤون من أتباعهم في الآخرة؛ لأن الوعود التي كانت عظيمة في مجالس القوة تصبح أضعف من بيت العنكبوت عند انكشاف الحقيقة.

﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ نفياً يقتلع الوهم من جذوره. لا شيء، ولو كان صغيراً. فالإنسان يولد فرداً، ويختار فرداً، ويقف بين يدي الله فرداً. وقد يُضلّه غيره، لكن التضليل لا يلغي مسؤوليته ما دام قد مُنح عقلاً، وسمع النداء، واستطاع أن يسأل عن الطريق.

ومع ذلك فإن المضللين لا يخرجون بلا تبعه:

﴿وَلْيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَاتَّقَالُوا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْأَلَنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

يحملون أثقال خطاياهم، وفوقها أثقال الإضلال؛ لا لأن شيئاً من ذنب الأتباع قد انتقل إليهم فأعفى الأتباع، بل لأن صناعة الانحراف ذنبٌ آخر مستقل. فمن فتح باباً

للظلم لم يحمل فعلته وحدها، بل حمل أثر الباب الذي ظلّ مفتوحاً بعده. ومن زين باطلاً في أعين الناس، أو منح الفساد لساناً بليغاً، أو حوّل الضلالة إلى ثقافة متداولة، فإن خطاه لا تتوقف حيث توقف جسده؛ إنها تمشي في خطى من تبعه.

ما أثقل الكلمة حين تتحول إلى طريق!

قد يقولها المرء في لحظة، ثم تعيش بعده أعواماً في وعي الآخرين. وقد يكتب فكرةً يررر بها ظلماً، فيموت الكاتب ويبقى التبرير يعمل في العقول. وقد يسنّ عادةً فاسدة، ثم يغيب وتظلّ العادة تتكاثر في المجتمع.

وهنا ينقلب مشهد الأحمال: الذين قالوا في الدنيا ﴿وَلَنَحْمِلَ خَطَايَاكُمْ﴾ عجزوا عن حمل ذنبٍ واحد عن أتباعهم، لكنهم وجدوا على ظهورهم أثقالاً أخرى؛ هي أثقال الكذب الذي أغرى الناس، والقدوة التي ضللتهم، والسبيل الذي مهّدوه للهاوية. وهكذا تحرر السورة الإنسان من أخطر أوهامه: أن يسلم عقله لأحد، ثم يظن أن أحداً سينوب عنه أمام الله. لا نسب، ولا زعيم، ولا جماعة، ولا كثرة، ولا تاريخ تستطيع أن تقف بين العبد وربّه.

إن أعظم ما يصون كرامة الإنسان أن يعرف أنه مسؤول. والمسؤولية ليست عبثاً فحسب؛ إنها إعلان أن الله لم يخلقك هامشاً في إرادة غيرك، بل منحك قلباً يفقه، وعقلاً يميّز، وإرادةً تختار.

فلا تجعل نفسك خيطاً في بيت ينسجه الآخرون، ثم تكتشف عند أول ريح أن الخيط الذي ظننته انتماءً لم يكن إلا قيداً، وأن السقف الذي وعدك بالحماية كان أضعف من أن يحمي نفسه.

الفصل السابع

نوح... حين يصبح الصبرُ عمراً كاملاً

بعد أن كشفت السورة امتحان الفرد في نفسه وأهله ومجتمعه، تفتح كتاب التاريخ؛ لا لتقصّ أخباراً بعيدة، بل لتقول للؤمن إن الطريق الذي يمليه اليوم قد احتفظ بآثار أقدام السابقين.

وأول ما يلوح في الأفق رجلٌ يقف وحده أمام قرونٍ من العناد: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾

ما أطول المسافة بين أول نداءٍ أطلقه نوح، وآخر موجةٍ أغلقت صفحة المكذبين! تسعمائة وخمسون عاماً، لا من العمر العادي فحسب، بل من الدعوة والانتظار والمواجهة. تعاقبت وجوه، وتبدلت أجيال، ونشأ أبناءٌ على تكذيب آبائهم، وبقي نوح يحمل الكلمة نفسها، كأن الزمن كله لم يستطع أن يطعن يقينه بشيخوخة. إننا نقرأ الرقم في لحظة، لكن خلفه ليالي لا تُحصى من الحزن، وصباحات كان نوح يخرج فيها إلى قومه لعل قلباً جديداً ينفتح للنور، فيعود وقد أضيف إلى ذاكرة الرفض يومٌ آخر. كم مرة سمع السخرية نفسها؟ كم مرة ظنّ الناس أن استمرارهم على الباطل كل هذه القرون برهاناً على صوابهم؟ وكم مرة حاول اليأس أن يهمس لقلبه: لو كان فيهم خيرٌ لظهر منذ زمن؟

لكن الأنبياء لا يقيسون الحق بسرعة انتشاره؛ لأن الحقيقة لا تستمد حقيقتها من عدد الذين يصفقون لها. قد يقف الحق في إنسان واحد، ويقف الباطل في مدينة كاملة، ثم يظل الإنسان الواحد أثقل عند الله من المدينة وما جمعت.

إن نوحاً لم يكن مسؤولاً عن فتح القلوب، بل عن آلا يغلق فه عن البلاغ، وآلا تغلق الخيبة قلبه عن الرحمة. وهنا يتحرر الداعية من عبودية النتائج: يعمل لأنه مأمور، لا لأنه يضمن الثمرة؛ ويزرع لأن الزرع طاعته، أما الإنبات فن شأن الله.

ولعلّ من أعمق فتن الطريق أن يطول الزمن دون أن يرى المؤمن ثمرةً تناسب جهده. فالإنسان يحتمل المشقة إذا رأى غايتها تقترب، لكنه يُمتحن حقاً حين يعمل ولا يرى إلا الجدار، ويدعو ولا يسمع إلا الصدى، ويحسن ولا يبدو أن الإحسان غير شيئاً. عندها يسأله الإيمان: هل كنت تعمل لله، أم للنتيجة التي تمنيت أن يمنحك الله إياها؟ لقد لبث نوح، لا لأن الطريق كان سهلاً، بل لأن الله كان غايته. ومن كان الله غايته لم تُبطله قلة الثمرات الظاهرة؛ فقد يكون أعظم ما يثمره العمل الطويل هو الإنسان الذي يصنعه الله في داخلك وأنت تعمل.

ثم تقول الآية:

﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾.

لم يأخذهم الطوفان لأن نوحاً عجز عن الصبر، بل بعد أن استنفد العناد كلّ مساحات الإمهال. جاء الماء الذي كانوا يرونه مصدر الحياة، فتحول بأمر الله إلى نهاية. فالكون ليس محايداً أمام خالقه؛ الشيء الواحد يحيي بإذنه ويهلك بإذنه، يحمل السفينة وابتلع المدينة.

﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾؛ أي إن الطوفان لم يفاجئ أبرياء غافلين، بل جاءهم وهم مقيمون في الظلم، بعد عمرٍ من الإنذار. لم يكن العقاب نفاذاً للرحمة، بل نهايةً لإعراض طال حتى صار العناد هوية.

ثم يسطع مشهد النجاة:

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾

في بحرٍ لا حدود له، صارت السفينة الصغيرة أوسع من الأرض؛ لأن الأرض التي انفصلت عن الله ضاقت بأهلها، والسفينة التي جرت بأمر الله اتسعت للنجاة. ليست النجاة دائماً في المكان الأكثر صلابةً في نظر البشر؛ فقد تكون في ألواح ودُسر، بينما تغرق القصور والجبال. قيمة المأوى ليست في مادته، بل في المعية التي تحيط به. سفينة مع الله أقوى من حضارةٍ تواجهه، وقلبٌ متوكل عليه أصلب من جيوشٍ تظن أن قوتها ذاتية.

لقد بقيت السفينة آية؛ لا بوصفها حدثاً مضى فحسب، بل معنىً يتكرر في حياة المؤمنين: حين يعمّ الطوفان، يصنع الله لأوليائه باباً لا يراه المكذبون. قد يسخر الناس من السفينة قبل مجيء الماء، ثم يتمنون موضعاً فيها حين تبدأ الأرض بالغرق. كم من طاعة بدت في أولها غريبة، ثم ظهر أنها كانت وحدها النجاة! وكم من ثابت سُخر منه لأنه كان يبني سفينته في زمن الجفاف، فلما نزل الطوفان عرف الناس أن ما حسبه جنوناً كان بصيرة!

الفصل الثامن

إبراهيم... ثورة القلب على أصنامهم

ثم تنتقل السورة من صبر نوح الممتد إلى لهب إبراهيم المتقد؛ من نبيٍّ واجه قرون العناد، إلى نبيٍّ وقف أمام الأصنام، لا ليحطم حجارتها وحدها، بل ليحطم المنطق الذي يجعل القلب يركع لما صنعتته اليد:

﴿وَأَبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

بدأ إبراهيم من المركز: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾. فالأزمات التي تمتلئ بها أطراف الحياة كثيراً ما تبدأ من خللٍ في المركز. حين يعبد الإنسان غير الله، تحتلّ علاقته بنفسه، وبالناس، وبالأشياء؛ لأنه يمنح المحدود سلطة المطلق، ويطلب من العاجز ما لا يقدر عليه، ثم يمضي عمره موزعاً بين مخاوف كثيرة.

العبودية لله ليست انتقاصاً من الإنسان، بل إنقاذٌ له من أن يعيش عبداً لكل شيء. من لم يعبد الله وحده، عبد مزاجه، أو شهوته، أو صورته في عيون الآخرين، أو صاحب القوة، أو السوق، أو الجمهور، أو الخوف من المستقبل. ولا يخرج الإنسان من العبودية؛ إنما يختار سيّده.

﴿وَاتَّقُوهُ﴾؛ اجعلوا بينكم وبين ما يسخطه وقايةً من وعيٍ ومحبة ومراقبة. فالتقوى ليست خوفاً يطارد الحياة حتى يحففها، بل بصيرةٌ تحمي جوهرها من التلف. هي أن تعرف أين تضع قدمك، لأنك تدرك أن الطريق ليس بلا غاية، وأن كل خطوة تترك أثراً في مصيرك.

﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ فالله لا ينتفع بتوحيدهم، وهم الذين يستردون به كرامتهم المبعثرة عند أبواب الآلهة الزائفة. كل أمرٍ إلهي يحمل في أعماقه خير الإنسان، وإن بدا أول الطريق تضيقاً على هواه. فالطبيب يمنع ما تشبهه العلة كي ينقذ ما بقي من العافية.

الفصل التاسع

حين يصنع الإنسانُ معبودَه ثم يرجوه

يضع إبراهيم قومه أمام المفارقة الفاضحة:

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

الوثن ليس حجراً فحسب؛ إنه كل شيء يمنحه القلب من التعظيم والرجاء والخوف ما لا ينبغي إلا لله. وقد تتغير أشكال الأوثان بتغير الأزمنة، لكن جوهرها واحد: أن يصنع الإنسان شيئاً، ثم ينسى أنه صنعه، فيمنحه سلطةً على روحه.

﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾؛ تصنعون الكذبة ثم تسكنون داخلها. تخت اليد الصنم، ثم ينخت الوهم في القلب له مهابة. ينسج المجتمع الحكاية، ثم تخضع الأجيال لما نسجه السابقون، حتى يصبح السؤال عن الدليل جريمة، ويصير تكرار الكذبة برهاناً عليها. وهكذا تعمل الأوهام الكبرى: تبدأ فكرة يصنعها الإنسان، ثم تنتهي قوة تصنع الإنسان.

لكن إبراهيم يعيدهم إلى سؤال الرزق؛ لأن كثيراً من العبوديات يتخفى وراء الخوف على المعاش:

﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾.

كم عبد الإنسان من دون الله خوفاً على رزقه! كم سكت عن حق، أو باع موقفاً، أو زين باطلاً، لأنه ظن أن مخلوقاً يمسك بمفتاح حياته! إنه يرى اليد التي تسلمه العطاء، ولا يرى الخزانة التي أمدّت اليد؛ فيتعلق بالجرى وينسى المنبع.

الأسباب تحمل الرزق، لكنها لا تخلقه. والناس قد يكونون أبوابه، لكنهم ليسوا خزائنه. وقد يغلق عبدٌ باباً، فيفتح الرب أبواباً لم تكن تخطر على القلب.

﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾؛ لا يعني ذلك ترك السعي، بل تحرير السعي من الذل. اعملوا في الأرض، واطرقوا الأبواب، وأحسنوا الأخذ بالأسباب؛ لكن أبقوا قلوبكم عند الله. لا تجعلوا الوظيفة ربًّا، ولا صاحب المال رازقًا، ولا السوق إلهًا متقلب المزاج. تحرك الجوارح في عالم الأسباب، ويسكن القلب في حضرة المسبّب. ثم جمع إبراهيم أصول العلاقة بالله: ﴿وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾.

اعبدوه لأنه الإله الحق، واشكروا له لأن حياتكم كلها تجري من فضله. والشكر ليس كلمة تقال عند وفرة النعمة فحسب؛ بل طريقة في رؤية الوجود. أن ترى ما أعطيت قبل أن تحدّق فيما مُنعت، وأن تدرك النور المتسرّب من شقوق أيامك، وألا تسمح للألم الواحد أن يحجب عنك نعمًا لا تُحصى. ثم يأتي المصير ليضع كل رغيّف، وكل خوف، وكل عبادة في موضعه: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

منه الرزق، وإليه الرجوع؛ وبين البداية والنهاية امتحان: هل تأخذ نعمه وتنسى المنعم، أم نعبر بالنعم إليه؟

الفصل العاشر

البلاغ... حين تؤدي الأمانة ويختار الناس طريقهم

يقول إبراهيم لقومه:

﴿وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾

إن التكذيب لا يجرح الحقيقة، بل يجرح صاحبه. الشمس لا تنطفئ لأن أعمى أنكرها، والطريق لا يتبدل لأن ضالاً أدار ظهره له. لقد كذبت أُمَمٌ من قبل، ثم مضت وبقي الحق الذي كذبت به.

﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾؛ وضوح بلا التواء، وأمانة بلا كتمان، ورحمة لا تحول الرسالة إلى قهر. فالرسول يدلُّ على الباب، لكنه لا يقتحم القلوب؛ يضيء الطريق، لكنه لا يسلب الإنسان اختياره.

وفي هذا عزاءٌ لكل صاحب رسالة صادقة: ليس عليك أن تملك قلوب الناس، فهي بين أصابع الرحمن؛ عليك أن تؤدي ما استؤمنت عليه نقيّاً من هوى نفسك. لا تغير الحقيقة كي تُقبل، ولا تقسو بها لأنهم رفضوها، ولا تجعل استجابتهم مقياساً لقيمتها. إنما الخطر أن يتحول الداعية من شاهدٍ على الحق إلى طالب اعترافٍ من الخلق؛ فإذا لم يستجيبوا غضب لنفسه وهو يظن أنه يغضب لله. أما البلاغ الصادق، فيجمع قوة البيان إلى طهارة القصد: يقول الحقيقة كاملة، ثم يترك لله ما وراء ذلك.

الفصل الحادي عشر

سرُّ البداية... وبرهان العودة

ثم تدعو السورة الإنسان إلى أن ينظر في أكثر الآيات قرباً منه: وجوده نفسه.
﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾

إننا نعتاد المعجزة حتى لا نعود نراها. يولد الإنسان أمامنا، تنشق البذرة عن ساق، تتشكل الملاح في رحمٍ مظلم، وتعود الأرض خضراء بعد موتها؛ ثم نسمي كل ذلك «طبيعياً»، كأن الاسم يزيل الدهشة.

لكن السورة توقظ العين: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾؟ ألم يروا هذا البدء المتكرر من حولهم؟ كيف يخرج الحي من موضع لا تلمح فيه العين حياة؟ كيف ينتقل الجسد من خلية لا تكاد تُرى إلى إنسان يحمل في داخله ذاكرةً وحباً وخوفاً وأحلاماً؟ من أين جاء هذا السر الذي يجعل المادة تدرك ذاتها، وترفع رأسها إلى السماء، وتسأل عن خالقها؟ إن الذي أخرج الوجود من العدم لا يعجزه أن يعيد ما خلقه. إعادة الشيء ليست أعظم من ابتدائه، وإن كانت القدرة الإلهية لا تتفاوت أمامها الأشياء.

﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾؛ وما أصعبه في مقاييس البشر! لكن القياس على قدرة الإنسان هو أصل كثير من الضلال. نحن نتخيل قدرة الله من خلال عجزنا، فنستبعد ما لا نستطيعه، مع أن الذي يقول للشيء كن فيكون لا يثقله جمع العظام، ولا يقاط من استقروا في طبقات التراب.

ثم لا تكتفي السورة بالنظر القريب، بل تفتح للإنسان أفق الأرض:
﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

السير هنا ليس انتقال أقدام غسب، بل حركة عقل وبصيرة. سيروا في الأرض، اقرؤوا طبقاتها، وتأملوا تنوع أحيائها، وانظروا إلى آثار من كانوا قبلكم. دعوا العالم يخرج من صمته؛ فكل شيء فيه يحمل سؤال البداية.

إن الأرض كتابٌ مفتوح، لكن كثيرين يمرون على حروفه دون قراءة. يرون الجبال ولا يرون القوة التي أرستها، ويرون تعاقب الأجيال ولا يسمعون صوت الفناء، ويرون تنوع الخلق ولا يرتفعون من جمال الصنعة إلى جلال الصانع.

﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾؛ ليست الآخرة إصلاحاً لهذا العالم المتآكل، بل نشأة أخرى، بقوانينها وكال ظهورها. هناك يخرج الإنسان من ضيق الزمن، وتتكشف الأعمال بعد أن كانت معاني مستترة، ويصير الغيب الذي أنكره مشهداً لا يمكن الفرار منه.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ فلا شيء يقف خارج سلطان القدرة: لا تراب الأجساد، ولا تفرق الذرات، ولا مرور القرون، ولا نسيان البشر. نحن ننسى هيئة من فقدناهم، لكن الله لم يرغب عنه منهم شيء.

الفصل الثاني عشر

بين عدلٍ لا يظلم ورحمةٍ لا يحدّها شيء

تضع السورة الإنسان أمام جلال السيادة الإلهية:

﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾

مشيئة الله ليست هوىً مجرداً، تعالى الله عن ذلك؛ إنها مشيئة الحكيم العليم، الذي يضع الرحمة موضعها والعدل موضعه، ولا يظلم مثقال ذرة. هو أعلم بالقلوب التي قاومت النور حتى ختمت على نفسها، وأعلم بالأرواح المنكسرة التي تسير إليه مثقلةً بندمها ورجائها.

﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾؛ كأن الحياة تقلّب الإنسان بين أحوالها، ثم تقلبه في النهاية إلى الله. اليوم يملك شيئاً وغداً يفقده، اليوم يعرف وغداً ينسى، اليوم يمشي على الأرض وغداً يُجمل فوقها؛ حتى إذا انتهت التقلبات كلها استقر المصير عند من لا يتغير ملكه. ثم تسقط الآية أوهام الهرب:

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

قد يفرّ الإنسان من إنسان، ومن مدينة، ومن قانون؛ لكنه لا يفرّ من الله إلا إليه. الأرض كلها في ملكه، والسماء كلها تحت أمره. لا توجد زاوية كونية تقع خارج العلم، ولا مسافة يضعف عندها السلطان.

﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾؛ هنا تبدأ خيوط بيت العنكبوت في الظهور. كل وليٍّ اتُّخذ من دون الله سيصل إلى حدٍّ يعجز فيه عن الولاية، وكل نصير سيأتيه يوم يحتاج فيه إلى من ينصره. قد يحميك مخلوق من مخلوق، لكنه لا يحميك من القدر، ولا من الموت، ولا من الحساب.

إن التوحيد لا ينزع من الحياة روابطها، بل ينزع عنها أوهام الألوهية. نحبّ الناس، ونشكرهم، ونستعين بهم فيما يقدرّون عليه؛ لكننا لا نخدع أنفسنا فنحسبهم مصادر

مستقلة للقوة. هم جميعاً فقراء تحت ستر الله؛ إن حفظونا فيأذنه، وإن أعانونا فمن عطائه، وإن غابوا بقي هو لا يغيب.

ثم تصف السورة الخسارة التي لا تعادلها خسارة:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئْسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾
إنكار الآخرة ليس فكرة عقلية باردة؛ إنه قطع للطريق الذي يصل الدنيا بالمعنى. ومن أنكر اللقاء عاش داخل اللحظة كأنها كل شيء، فصار الألم عنده بلا تعويض، والظلم بلا محكمة أخيرة، والموت حفرةً تبتلع الحكاية.

﴿يَئْسُوا مِنْ رَحْمَتِي﴾؛ لأنهم أغلقوا بأيديهم النافذة التي يدخل منها الرجاء. رحمة الله واسعة، لكن من يصرّ على إنكارها ورفض طريقها يختار لنفسه العراء.

ومع ذلك قالت الآية: ﴿رَحْمَتِي﴾؛ فنسب الله الرحمة إلى ذاته، كأن اللفظ نفسه يذكر القلب بأن الأصل في الوجود فيض رحمته، وأن العذاب لم يكن كميناً للخلق، بل مآلاً اختاره من ظل يقاوم كل نداء للعودة.

الفصل الثالث عشر

النار التي لم تستطع أن تحرق اليقين

بعد حجج إبراهيم الواضحة، لم يجد قومه جواباً من جنسها:
﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

حين يعجز الباطل عن هزيمة الفكرة، يحاول إسكات صاحبها. ينتقل من المحاجة إلى النار؛ لأن القوة آخر حجة يملكها العاجزون عن الحجة.

﴿اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾؛ لم يناقشوا قوله، ولم ينقضوا برهانه، بل رأوا في وجوده نفسه خطراً. فالكلمة الصادقة تفضح البناء الزائف بمجرد أن تُقال، والنور لا يحتاج إلى أن يصارع الظلام طويلاً؛ يكفي أن يحضر حتى يكشفه.

لكن النار، التي ظنوا أنها نهاية إبراهيم، صارت بداية جديدة له. لقد جمعوا الحطب، وأوقدوا اللهب، وألقوا الجسد؛ لكنهم لم يكونوا يملكون حقيقة النار. عرفوا حرارتها، ولم يعرفوا أنها مأمورة. حسبوا قوانين الكون مستقلة عن خالقها، فإذا بالشيء الذي أعدوه للهلاك يتحول بأمر الله إلى موضع نجاة.
﴿فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾.

ما أقصر العبارة، وما وراءها من جلال! لم يقل: غلب إبراهيم النار بقوته، بل أنجاه الله. فالعبد لا يعبر الابتلاء باستقلاله، وإنما بمعونة تأتيه من حيث لا يحتسب. وقد لا يطفى الله النار دائماً، لكنه يمنح القلب من اليقين ما يمنع النار من أن تحرق إيمانه. هناك من يخرج من المحنة وقد خسر بعض دنياه ورج نفسه، وهناك من ينجو بجسده لكنه يخرج وقد احترق في داخله كل معنى كريم. النجاة الكبرى ليست أن يبقى الجسد سالماً، بل أن يبقى القلب لله.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ لأن العين التي لا تؤمن قد ترى الحادثة ولا ترى الآية. الإيمان لا يخترع الدلالة، لكنه يطهر البصيرة من المحجب التي تمنعها. وما أكثر من عاشوا وسط المعجزات، ثم لم يروا إلا أحداثاً عابرة!

الفصل الرابع عشر

المودات التي تنتهي عند أول الحقيقة

يكشف إبراهيم السر النفسي الذي ربط قومه بأوثانهم: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمُ بِبَعْضٍ وَلَيَعْنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَوَآكِرُ النَّارِ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾
كم من باطل لا يبقى لأن الناس مقتنعون به، بل لأنه صار رابطاً اجتماعياً بينهم! يحب بعضهم بعضاً من خلاله، ويتبادلون الاعتراف والانتماء تحت ظله، ويخاف الفرد إن تركه أن يفقد الجماعة التي تمنحه هويته.

قد يكون الوثن فكرة يتواطأ عليها المجتمع؛ لا يجرؤ أحد على سؤالها لأن السؤال يهدد شبكة المودات والمصالح. يسكت هذا كيلاً يُقضى، ويجمال ذاك كيلاً يخسر مكانه، حتى يصبح الباطل بيتاً اجتماعياً واسعاً؛ لكن خيوطه من خوف ومصالحة، لا من حقيقة.

﴿مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ مودة مؤقتة، يجمعها الوثن وتفرقها الحقيقة. ليس كل اجتماع دليل محبة صادقة؛ فقد تتألف الجماعات حول خصومة الحق، وحول المنفعة، وحول الخوف من المختلف. تبدو متماسكة ما دامت الغنائم حاضرة، فإذا جاء يوم الحساب انقلبت الروابط لعنات.

﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾؛ يتبرأ التابع من المتبوع، والصديق من صديقه، والزعيم من جماعته. كل واحد يريد أن يلقي عن نفسه الحمل الذي حمله مختاراً. والذين قالوا في الدنيا: نحن معكم، يقولون في الآخرة: ما كان بيننا وبينكم شيء.

وهنا يظهر الفرق بين الأخوة في الله والمودة على الباطل: الأولى تزداد صفاء حين تكشف الحقيقة، والثانية تنهار؛ لأنها لم تكن حباً للإنسان، بل استعمالاً متبادلاً للمصلحة.

الفصل الخامس عشر

لوط يؤمن... وإبراهيم يهاجر

وسط بحر التكذيب، يضيء قلب واحد:

﴿فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

كم يبدو الإيمان الواحد قليلاً في حساب الأعداد، لكنه عند صاحب الرسالة عالمٌ كامل. بعد المواجهة والنار، آمن لوط. ولعل الله يعلم الدعاة أن ثمرة السنين قد تكون قلباً واحداً؛ لكنه قلب يحمل نوراً إلى مدينة أخرى، ويصبح نبياً في فصل جديد من تاريخ الهداية.

ثم قال إبراهيم:

﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾.

لم يقل: مهاجر من قومي فقط، ولا من أرض النار؛ بل ﴿إِلَىٰ رَبِّي﴾. فالهجرة في حقيقتها ليست خروجاً من مكان، بل انتقالٌ إلى الله. قد يغيّر الإنسان أرضه ولا يهاجر قلبه، وقد يبقى في موضعه لكن روحه تخلع كل تعلّق يبعدها عن ربها. ﴿إِلَىٰ رَبِّي﴾؛ يا لها من وجهة تمنح الغريب وطناً! من خرج إلى الله لم يفقد البيت، بل وجد البيت الذي لا يزول. قد يترك وراءه ذاكرة الطفولة، ووجوه القوم، وألفة الطرقات، لكنه يحمل معه ربّ الأرض كلها. ومن كان الله معه، فأى أرض تكون غربةً خالصة؟

الهجرة لحظة تسقط فيها دعوى التوكل أو تثبت. فالإنسان يقول: رزقي عند الله، ثم يُطلب منه أن يترك الموضع الذي اعتاد أن يأتيه فيه الرزق. ويقول: أنسي بالله، ثم يفارق الوجوه التي ألفها. ويقول: مستقبلي بيد الله، ثم يخطو نحو أرضٍ لا يعرف ملايحها.

هناك يتحول التوكل من معنى جميل إلى حياة كاملة.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ؛ عزيزٌ فلا يُذل من احتَمى به، وحكيمٌ فلا يضيع خطوةً
خُطِيت إليه. قد لا يمنح المهاجر ما تركه بالصورة نفسها، لكنه يفتح له من حكمته ما
يجعله يرى أن الفقد كان باباً لعطاءٍ أعمق.

الفصل السادس عشر

ما يُترك لله لا يضيع

تأتي ثمرة الهجرة بعد مرارة المفارقة:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَاتَيْنَاهُ أُجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾

ترك إبراهيم قوماً، فوهمه الله أمةً في ذريته. تركوطناً محدوداً، فجعل الله ذكره وطناً في قلوب المؤمنين. حاولوا قطع صوته بالنار، فجعل الله النبوة والكتاب ممتدين في نسله، حتى صار التاريخ بعده يتتبع آثار دعائه وخطواته.

هكذا عطاء الله: لا يعيد إليك دائماً الشيء الذي تركته، بل قد يمنحك معنىً أوسع منه بما لا يقاس. من ترك شيئاً لله لم يدخل فراغاً، وإنما أفسح في قلبه موضعاً لعطاء لم يكن يتسع له قبل الترك.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾؛ والهبة عطاءٌ يتجاوز الحساب. إسحاق ويعقوب ليسا تعويضاً عددياً عن قومه، بل امتداد نور. ومن ذريته خرجت النبوات والكتب، كأن النار التي أرادت إحراق رجل أشعلت في التاريخ سلسلةً من المصاييح.

﴿وَآتَيْنَاهُ أُجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾؛ فليس كل أجرٍ مؤجلاً. من أجور الصدق في الدنيا سكينة القلب، والتحرر من الخوف، والذكر الحسن، ومحبة الأرواح الصافية، وأن يرى الإنسان أثر موقفه يمتد أبعد من عمره.

ومع ذلك لا تكون الدنيا نهاية الجزاء:

﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

فهما عظم ما يُعطى العبد هنا، تبقى الهدية الكبرى هناك: أن يُكتب عند الله من الصالحين. لا من المشهورين، ولا من الأقوياء، ولا من الذين ملأوا الدنيا صحباً؛ بل من الذين صلحت سرائرهم، وصدقوا في هجرتهم، ومروا بالنار فلم تسرق منهم نور اليقين.

وهكذا ينتهي مشهد إبراهيم وقد انقلبت الموازين: القوم الذين امتلكوا الأرض والنار غابوا، وبقي المهاجر الفرد أمةً ممتدة. كانوا يملكون وسائل البطش، وكان يملك الله؛ فذهبت الوسائل وبقيت المعية.

وتلك هي أولى ضربات السورة لبيت العنكبوت: قد يبدو الباطل كثيف الخيوط، محكم الشبكة، كثير الحراس؛ لكن نفخةً واحدة من أمر الله تكشف أنه لم يكن بيتاً، وأن الرجل الذي خرج منه وحيداً كان هو الناجي الوحيد من الخراب.

الفصل السابع عشر

لوط... غربة الطهارة في مدينةٍ فقدت حياءها

بعد أن خرج إبراهيم مهاجراً إلى ربّه، تمضي السورة إلى لوط، ذلك القلب الذي حمل إيمانه إلى قومٍ لم يكتفوا بالانحراف، بل أرادوا تحويل الانحراف إلى نظام حياة، والفترة إلى تهمة، والطهارة إلى غربة:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقُكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾

كان لوط يقف أمام مجتمع لا ينقصه العلم بالفعل الذي يرتكبه، وإنما تنقصه الإرادة التي تعترف بأنه فاحشة. فالانحراف إذا تكرر لا يبقى سلوكاً فردياً؛ يبدأ في إنتاج لغته الخاصة، وتبريراته، ومفاهيمه، ثم يحاول أن يعيد تعريف الفضيلة والزيلة حتى لا يعود الضمير قادراً على تسمية الأشياء بأسمائها.

وهنا يكون دور الوحي: أن يحفظ للأشياء أسماءها حين تعبت بها الأهواء.

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾؛ قالها لوط بوضوح الرحمة، لا بفظاظة التشهير. فالمجتمع

الذي يفقد القدرة على سماع اسم مرضه يفقد طريق العلاج. وليس من الرحمة أن نزين الهاوية لمن يقترب منها، ولا من القسوة أن نقول للجريح: هذا جرح.

﴿مَا سَبَقُكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾؛ كأنهم لم يكتفوا باتباع شهوة، بل شقوا في تاريخ الانحراف طريقاً جديداً، ثم ساروا فيه جماعةً حتى تحول الشذوذ عن الفترة إلى مظهر قوة وهوية اجتماعية.

لقد أراد الإنسان دائماً أن يمنح رغبته براءةً فكرية؛ فإذا لم يستطع إنكار الوحي، أنكر الفترة؛ وإذا لم يستطع إنكار الفترة، أعاد تعريفها؛ وإذا بقي في أعماقه صوت يعاتبه، ملأ الفضاء بالضجيج كيلا يسمعه.

لكن الفترة قد تغطي ولا تُمحي، وتُخدر ولا تموت؛ لأنها ليست اتفاقاً اجتماعياً قابلاً للتبديل، بل نقشٌ من الخالق في بنية الإنسان.

ثم يكشف لوط أن الخلل لم يكن شهوةً منفردة، بل شبكةً من الفساد:

﴿اِنَّكُمْ لَتَاْتُونَ الرَّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَاْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ﴾

حين ينهار السياج الداخلي للحياء، لا يقف الانهيار عند حدّ. فساد الشهوة يقترن بقطع الطريق، وإفساد المجال العام، وتحويل المجالس إلى مسارح للمنكر. فالخطيئة التي تبدأ سرّاً تطلب مع الزمن اعترافاً علنياً، ثم لا تكتفي بأن يُسمح لها، بل تريد من الجميع أن يصفقوا لها.

﴿وَتَاْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ﴾، لم يعد المنكر نجلاً يختبئ، بل صار مشهداً اجتماعياً متداولاً. وحين يفعل الإنسان القبيح وحده، قد يبقى في داخله شيء من الانكسار؛ أما حين تمارسه الجماعة، فإن أفرادها يستعير بعضهم من بعض جرأة كاذبة. يظن كل واحد أن كثرة المشاركين تخفف عنه المسؤولية، مع أن كثرة السائرين إلى الهاوية لا تجعلها طريق نجاة.

إن المجتمع قد يتحول إلى ضمير زائف؛ يطمئن الفرد إلى رضا الناس عنه، ولو كان الله ساخطاً عليه. وحين تصبح الجماعة مرآته الوحيدة، لا يعود يرى تشوهه؛ لأن الوجه المحيط به تحمل التشوه نفسه.

الفصل الثامن عشر

حين يعجز الباطلُ عن الإجابة فيطلب العذاب

كان جواب قوم لوط عجيبيًا:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾

مرةً أخرى يعجز الباطل عن تقديم الحجة، فينتقل إلى التحدي. لم يقولوا: ما الدليل على فساد فعلنا؟ ولم يقفوا أمام مرآة الفطرة؛ بل طلبوا العذاب، كأن تأخره برهانٌ على عدم مجيئه، وكأن حلم الله موافقةً على ما يصنعون.

كم يكون الإنسان مخدوعاً حين يجعل الإمهال حجةً على البراءة! يكرر الخطيئة فلا تنزل عليه صاعقة، فيظن أن السماء صامته لأنها راضية. وما يدري أن من رحمة الله أن يمنحه وقتاً للرجوع، وأن كل يوم تأخر فيه الأخذ كان باباً مفتوحاً لم يدخله.

إنهم لا يطلبون العذاب لأنهم يؤمنون به، بل سخريةً واستكباراً. وهذا من أقصى ما يبلغه القلب حين يقسو: أن يحول التحذير من النار إلى مادة للتحدي، وأن يستدعي الهلاك بلسانه لأنه فقد القدرة على تصور أنه قريب.

أما لوط، فقد وصل إلى اللحظة التي يرى فيها أن الفساد تجاوز قدرة الدعوة على اختراقه، فقال:

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾

ما أقصر الدعاء، وما أثقله! ليس فيه زخرف العبارة، بل تعب نبيٍّ حمل الطهر وحده في مدينةٍ كاملة. قال: ﴿رَبِّ﴾؛ وحين يضيق العالم كله، تنسع هذه الكلمة للمؤمن. إنها ليست نداءً فحسب، بل رجوع إلى الحمى، وإقرار بأن القوة البشرية بلغت نهايتها، وأن ما تعجز عنه اليد لا يعجز عنه الله.

﴿انصُرْنِي﴾؛ لم يطلب لوط انتصاراً لنفس جُرحت كرامتها، بل للحق الذي حوصر، وللفطرة التي أهيئت، وللمستضعفين الذين قُطع عليهم السبيل. إن النصر الصادق لا يكون شهوة انتقام، بل استعادةً للهيذان الذي عبث به المفسدون.

ووصفهم بما استقروا عليه: ﴿الْقَوْمُ الْمَفْسِدِينَ﴾. فالفساد أوسع من المعصية الفردية؛ إنه تحويل الحياة إلى بيئة تطرد الخير، وتضيّق على الطهر، وتعيد إنتاج الانحراف في أجيال جديدة.

الفصل التاسع عشر

الملائكة تمرُّ بإبراهيم في طريقها إلى المدينة الآثمة

استجاب الله دعاء لوط، وجاءت رسل السماء في صورة ضيوف، لكن طريقهم مرَّ أولاً بإبراهيم:

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾

في المشهد الواحد بشرى وهلاك؛ حياةٌ تولد في بيت إبراهيم، ومدينةٌ تطوى صفحتها بسبب ظلمها. وكأن أقدار الله تمضي في اللحظة نفسها بألوان مختلفة: تفتح باباً هنا، وتغلق باباً هناك؛ تمنح قلباً بشارة، وتحمل إلى قومٍ نهاية إهمالهم.

وهذا من جلال التدبير: نحن نرى خيطاً واحداً من القدر، والله ينسج في اللحظة نفسها مصائر لا تحصى. قد تكون الساعة التي تبكي فيها أنت ساعة بشارة لغيرك، وقد يكون ما تراه نهايةً في حياتك بدايةً لشيء لا تراه. وليس اختلاف الأقدار عبثاً، بل كلٌّ يجري بميزان الحكمة والعدل.

قالت الملائكة: ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾؛ فالهلاك لم يتعلق باسم القرية ولا بأرضها، بل بالظلم الذي تشربته. وحين ينسب القرآن الفعل إلى أهلها، يردّ المصير إلى الاختيار: لم يهلكوا لأنهم ضعفاء، ولا لأنهم أقل شأناً من غيرهم، بل لأنهم أقاموا حياتهم على إفساد الفطرة والسييل والمجتمع.

لكن إبراهيم، قلب الرحمة، لم يفكر أولاً في القوم الذين آذوا رسولهم؛ ففكر في لوط: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾

يا لوفاء الإيمان! في لحظة ذكر الهلاك، قفز اسم أخيه إلى قلبه. لم تشغله البشري الخاصة عن مصير المؤمن البعيد، ولم يقل: سينجو لوط حتماً، بل نطق بما يخشاه المحبّ.

المؤمن لا يعيش في جزيرة نفسه. قد تأتيه البشارة، لكن في قلبها مساحة لأحزان إخوانه. لا يكتمل فرحه وهو يعلم أن أحاً له في موضع الخطر، ولا تجعله النعمة ينسى المحاصرين في بقاع البلاء.

قالت الملائكة:

﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا﴾؛ لا تضيع في علم الله روحٌ صالحة وسط مدينة فاسدة. قد يختلط الناس في الشوارع والبيوت، لكنهم لا يختلطون في ميزان السماء. الله يعرف موضع القلب النقي ولو أحاطت به آلاف القلوب الملوثة.

إن خوف الإنسان كثيراً ما يأتي من نظرتة الجملة: يرى البلاء نازلاً على المكان فيظن أن الفرد سيضيع في الزحام، لكن تدير الله دقيق؛ يستخرج الحي من الميت، ويحفظ المؤمن من حيث لا يعلم، ويميز بين قلبين يعيشان تحت سقف واحد.

﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾؛ القرب من الصالح لا يصنع صلاحاً بالنيابة. كانت في بيت نبي، ورأت النور قريباً، لكن القرب المكاني لم يتحول إلى قرب إيماني. فليس الإنسان بمكانه، بل بموقفه؛ وليس النسب مركب نجاة إذا بقي القلب واقفاً على شاطئ الكفر.

كم من إنسان يسكن قرب المعنى ولا يسكن المعنى فيه! يسمع الوحي، ويخالط أهله، ويحفظ ألفاظه، لكن قلبه يبقى بعيداً. الهداية ليست عدوى تنتقل بالمجاورة، بل انفتاحٌ داخلي على الحق.

الفصل العشرون

ضيقُ لوط... والنجاة التي كانت أقرب مما ظن

وصلت الملائكة إلى لوط:

﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُونَكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَاتَكَ كُنْتَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾

رآهم لوط ضيوفاً، ورأى وراء جمال صورتهم خطر قومه؛ فضاق صدره لأن شرف الضيافة في مدينة فقدت شرفها صار عبئاً ثقيلاً. كان وحده بين واجب الحماية وعجز القوة، بين طهر يريد صونه وفسادٍ يندفع نحوه.

﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾؛ ضاق بما يملك من وسيلة، لا بما يملك من إيمان. فالأنبياء بشرٌ تضيق صدورهم حين تشتد الأسباب، لكنهم لا يجعلون ضيقهم باباً لسوء الظن بالله. قد يحزن المؤمن ويخاف، دون أن يعني ذلك أن يقينه انطفأ؛ فالإيمان لا يلغي حساسية القلب، بل يمنعه من أن يتحول خوفه إلى استسلام.

وفي ذروة الضيق انكشف له أن الذين خاف عليهم جاؤوا أصلاً لإنقاذه: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾.

كم من أمرٍ يدخل حياتنا في صورة عبء، وهو يحمل في داخله النجاة! وكم من ضيفٍ للقدر نسيء به ظناً، ثم نكتشف أنه جاء بالمفتاح الذي كنا ننتظره! ﴿لَا تَخَفْ﴾ مما سيأتي، ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ على ما مضى؛ كلمتان تحتضنان الزمن كله. انخوف ابن المستقبل، والحزن ابن الماضي، والسكينة أن يسلم الإنسان الزمنين لربهما. ﴿إِنَّا مُنْجُونَكَ﴾؛ كان لوط يظن نفسه حامياً لضيوفه، فإذا بالضيوف حملة نجاته. وحين يصل الإنسان إلى نهاية قدرته تبدأ بصيرته في رؤية قدرة الله. ليس لأن الله كان غائباً ثم حضر، بل لأن ضجيح الأسباب كان يحجب القلب عن شهود حضوره. ثم جاء الحكم:

﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾

الرجز من السماء يقابل الفساد الذي ملؤوا به الأرض. كانوا يظنون السماء بعيدة عن نواديهم، وأن أفعالهم محصورة في المكان الذي يملكونه؛ لكن الأرض والسماء ليستا عالمين منفصلين عن ميزان الله. ما يقع هنا معلوم هناك، وما يُزرع في الأرض قد ينزل حصاده من السماء.

﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾؛ الباء تعيد النتيجة إلى سببها. لم يكن العذاب حدثاً بلا مقدمة؛ لقد صنعوا مقدماته بأيديهم، يوماً بعد يوم، واختياراً بعد اختيار، حتى نضجت النهاية. وبقي من القرية بعد زوالها ما هو أبلغ من بقائها:

﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

تحولت المدينة من مكان للعيش إلى موضع للعبرة. انهدمت الجدران، لكن المعنى بقي واقفاً. فالخرائب قد تكون أفصح من القصور؛ لأنها تروي نهاية القوة حين تنفصل عن الحق.

﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ لأن رؤية الآية تحتاج إلى عقلٍ لا تبتلعه العادة. قد يمر الإنسان

على آثار الهالكين، ويلتقط منها صورة، ثم يمضي دون أن يسأل: ما الذي أسقطهم؟

وما الخيط المشترك بين فسادهم وفساد زمانني؟ وما الجزء الكامن منهم في نفسي؟

العقل القرآني لا يزور التاريخ سائحاً، بل يدخل إليه متهماً نفسه؛ لا يقول: ما أسوأهم، ثم يخرج مطمئناً، بل يقول: يا رب، نجّني من الطريق الذي انتهى بهم إلى هذا المصير.

الفصل الحادي والعشرون

شعيب... حين يفسد الميزان فيفسد المجتمع

ثم تنتقل السورة إلى مدين، حيث لا يظهر الفساد في الشهوة وحدها، بل في السوق والميزان وعلاقات الناس:

﴿وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

بدأ شعيب من التوحيد، ثم وصل إلى الاقتصاد والسلوك العام؛ لأن العبادة التي لا تصل إلى الميزان تبقى دعوى معلقة في الهواء. لا يمكن أن يعترف الإنسان بالله رباً في محرابه، ثم يعترف للطمع رباً في متجره. الدين الذي لا يصاحب صاحبه إلى مواضع المنفعة لم يستقر بعد في مركز إرادته.

﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾؛ لأن فساد المعاملات ينمو حين يضيق أفق الإنسان بالدنيا. من ظن أن الربح الحاضر هو الغاية القصوى، استطاع أن يسرق ويخدع ويطفف، ثم يسمي ذلك مهارة. أما من يرجو اليوم الآخر، فإنه يرى في كل صفقة ميزاناً آخر لا تميل كفته بالرشوة، ويعلم أن المال الذي جمعه من حقوق الناس سيتحول حملاً على ظهره.

الرجاء بالآخرة ليس انسحاباً من الدنيا، بل أعظم قوة لإصلاحها؛ لأن الذي ينتظر عدلاً كاملاً هناك، لا يرضى أن يبيني نجاته هنا على ظلم أحد.

﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾؛ العثو ليس خطأ عابراً، بل حركة فساد واسعة تعبت بالبنية التي تحفظ الحياة. حين يصبح الغش قاعدة، والاحتكار ذكاءً، وأكل الضعيف حقاً للقوي، لا يفسد جيب فردٍ وحده، بل يهدم الشعور بالأمان بين الناس. يفقد الإنسان ثقته بأخيه، ويتحول المجتمع إلى غابة من الحذر. لكنهم كذبوه:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِينَ﴾

الذين عبثوا بموازين الأرض أخذتهم رجفةٌ زلزلت الأرض تحتهم. كانوا يظنون أن بيوتهم وأموالهم تثبتهم، فإذا بالمكان الذي جمعوا فيه مكاسبهم يصير موضع جثومهم. ﴿فَأَصْبَحُوا﴾؛ ما أقرب المسافة بين ليل القوة وصباح السكون! ناموا وربما كانت حساباتهم ممتلئة، وأسواقهم قائمة، وخطط الغد جاهزة؛ ثم أصبحوا لا غد لهم. الرجفة لا تحتاج إلى أن تنقلهم من دارهم؛ أسقطتهم فيها. فالدار التي بُنيت بالظلم لا تكون مأمناً من عاقبته، والمال الذي اتُّخذ حصناً قد يتحول شاهداً على صاحبه.

الفصل الثاني والعشرون

عاد وثمود... حضارات رأت آثارها ولم تر مصيرها

تجمع السورة تاريخ أمم كانت رموزاً للقوة والعمران:
﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِينِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ
السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾

بقيت المساكن بعد سكانها؛ كأن الحجارة عاشت أطول من الأحلام التي شيدت من
أجلها. مرّ الناس على آثارهم، فرأوا ما بلغوه من قوة، ثم رأوا كيف انتهت القوة إلى
صمت.

﴿وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِينِهِمْ﴾؛ لا تحتاج العبرة دائماً إلى كتاب، فقد يكتب
الخراب الدرس على الجدران. أبواب بلا طارقين، وبيوت بلا أصوات، ونقوش تحمل
أسماء أناس كانوا يظنون أن وجودهم أثبت من الجبال.

لكن ما الذي منعهم من رؤية الهاوية وهي تقترب؟
﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ﴾.

إن أخطر ما يصنعه الشيطان ليس أن يدعو الإنسان إلى القبح وهو يراه قبحاً؛ بل أن
يضع على القبح مساحيق الفضيلة. يزين الطغيان فيبدو حزماً، والكبر فيبدو عزّة،
والبخل فيبدو تدبيراً، والتبعية للهوى فيبدو تحرراً.

حين تُزين الخطيئة، يفقد الندم طريقه إلى القلب؛ لأن الإنسان لا يتوب من عمل يراه
جميلاً. لذلك كان تزييف البصيرة أسبق من إفساد السلوك: يغيّر الشيطان زاوية
الرؤية، ثم يمشی الإنسان إلى هلاكه وهو يظن أنه يحسن صنعاً.

والأشد إثارة للألم قوله:

﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾.

لم يكونوا فاقدي العقول، ولا عاجزين عن النظر. كانت لديهم قدرة على الإدراك، وخبرة في شؤون الدنيا، وربما دقة في العمران والتدبير؛ لكن البصيرة التي لا تقود إلى الحق قد تتحول أداة أكثر كفاءةً في خدمة الباطل.

ليس كل ذكيٍّ مهتدياً، ولا كل متقدم في عمارة الأرض قد عرف غاية وجوده فيها. قد يرى الإنسان تفاصيل الطريق ببراعة، لكنه يسير في الاتجاه الخطأ. وقد يمتلك مصباحاً قوياً، لكن المصباح لا ينفعه إذا حمله وهو يبتعد عن البيت.

الفصل الثالث والعشرون

قارون وفرعون وهامان... وجوه القوة حين تنسى

مصدرها

ثم تجمع السورة ثلاثة رموز؛ كأنها تعرض أضلاع مثلث الطغيان:
﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾

قارون يمثل فتنة المال، وفرعون فتنة السلطة، وهامان جهاز القوة الذي يحول إرادة الطاغية إلى مؤسسات وأوامر. ثروة تتعالى، وحاكم يتأله، وذراع يُنفذ؛ وحين تجتمع هذه القوى يظن أصحابها أن الأرض قد أغلقت عليهم، وأن لا شيء يستطيع اختراق حصونهم.

لكن موسى جاءهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾. لم يكونوا ضحايا غموض، بل أسرى كبر. والحجة مهما بلغت من الوضوح لا تدخل قلباً أقفل بابه من الداخل.
﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾؛ والاستكبار وهم مكاني: مخلوق صغير يقف على جزء صغير من كوكب صغير، ثم ينتفخ في شعوره حتى يظن أنه فوق الحق. وما علم أن الأرض التي يستكبر عليها تحمل جسده مؤقتاً، ثم تفتح له حفرةً يتساوى فيها تاجه مع تراب الفقير.

﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾؛ ركضوا بالمال والجنود والحيلة، لكنهم لم يخرجوا من سلطان الله. كان موسى في ظاهر المشهد مطارداً، وكانوا هم أصحاب القرار؛ ثم تبين أن المطاردين وصل، وأن المطاردين هم الذين وقعوا في قبضة المصير.
لا يسبق أحدُ الله. قد يسبق المظلوم إلى المنبر، أو يسبقه إلى المحكمة، أو يكتب التاريخ قبل أن يتمكن المظلوم من رواية قصته؛ لكنه لا يسبق الله إلى الكلمة الأخيرة.

الفصل الرابع والعشرون

لكل طغيانٍ عقوبته... وللجميع عدلٌ واحد

تلخص السورة مصائر الأمم:

﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾؛ كلمة تفصل بين العدل والعبث. لم يكن التنوع في العقوبات نزوة، بل لكل أمة تاريخها وجرمها وموعدها. اختلفت صور الأخذ، لكن الحقيقة واحدة: حين يصر الإنسان على قطع صلته بمصدر الحياة، يصنع هلاكه بيده. الحاصب جاء من فوقهم، والصيحة اخترقتهم، والأرض انفتحت تحت قارون، والماء أطبق على فرعون. الجهات كلها جنود لله: السماء، والصوت، والتراب، والبحر. فإلى أين يفر من ظن أن الكون بلا رب؟

منهم من تفاخر ببنيانه، فجاءته الريح من حيث لا تمسكها الجدران. ومنهم من ظن الأرض ثابتة تحت كنوزه، فحسفت به. ومنهم من شق البحر بجنوده مطاردًا موسى، فتحول الطريق المفتوح إلى قبرٍ مائي.

لكن السورة، بعد هذا المشهد المهيّب، تقرر الأصل الذي يطمئن إليه القلب:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ﴾.

حاشاه سبحانه أن يعاقب بريئًا، أو ينقص صاحب حق، أو يؤاخذ عبدًا بغير ما اكتسب. لا يختلط أحد في علمه بأحد، ولا تضع نية في زحام التاريخ. ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾؛ وهذه من أكثر الحقائق وجعًا: أن الإنسان قد يكون هو اليد التي تهدم بيته، ثم يتهم الحياة بأنها أسقطته. يختار طريقًا تنكاثر فيه الشقوق، ويتجاهل التحذيرات، حتى إذا انهار السقف قال: لماذا حدث هذا لي؟

كل معصية ظلم للنفس قبل أن تكون خروجاً عن الأمر؛ لأن الله غني عن طاعتنا،
أما أرواحنا فهي التي تنشوه حين تبتعد عنه. الإنسان لا ينقص ملك الله بخطيئته، بل
ينقص من نوره، وسلامه، وحرية، واستعداده للقاء.

الفصل الخامس والعشرون

بيتُ العنكبوت... الاستعارة التي تفضح أوهام العالم

وهنا تبلغ السورة قلبها المصوّر، وتضع أمام البشرية بيتاً صغيراً تختصر به فلسفة التعلق بغير الله:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

لم تقل الآية إنهم بلا بيت؛ بل كشفت أن مشكلتهم في طبيعة البيت الذي اتخذوه. فالإنسان لا يستطيع أن يعيش بلا سند قلبي؛ لا بد له من مأوى يرجع إليه عند الخوف. فإذا لم يسكن إلى الله، نسج من الأشياء حوله بيتاً، ثم سمّاه أماناً. العنكبوت كائنٌ دقيق الصنعة، ينسج خيوطه بنظام يثير الدهشة. يبدو البيت متشابكاً، واسعاً بالقياس إلى صناعته، له هندسةٌ ومسالك؛ لكن كل ذلك التعقيد لا يمنحه قوة المأوى. فقد يكون الشيء محكم النسج، لكنه فاقداً للغاية التي يُطلب البيت من أجلها.

وهذه هي المفارقة: النسج ليس هو الحماية.

كذلك الأولياء من دون الله؛ قد تتعدد شبكاتهم، وتعتقد مؤسساتهم، وتكثر أموالهم وحراسهم، ويبدو اتصالهم بكل مراكز القوة محكماً؛ لكن حين تأتي الريح التي لم يحسبوا لها حساباً، تنكشف الحقيقة: خيوط كثيرة، وحماية قليلة.

بيت العنكبوت يلتقط الضعفاء، لكنه لا يجني ساكنه من الأقوياء. وهكذا الطغيان؛ قد يؤدي من يقع في شباكه، فيظن الناس أن قدرته على الإيذاء دليل على قدرته على البقاء. لكنه قد يكون شديداً على المستضعف، واهياً أمام أمر الله.

ليس الوهن دائماً ظاهراً. بيت العنكبوت يبدو قائماً قبل أن تمسه اليد، والباطل يبدو قوياً قبل أن تلمسه لحظة الحقيقة. لهذا يُخدع الناس بطول بقاءه واتساع شبكته.

يحسبون أن ما لم يسقط بعد لا يمكن أن يسقط، وينسون أن الخيط قد يبقى في الهواء أياماً، ثم تذهبه حركة عابرة.

إن السورة لا تهاجم محبة الناس، ولا الاستعانة بهم، ولا بناء العلاقات؛ بل تفضح اتخاذهم أولياء من دون الله: أن يُنحوا ولاء القلب المطلق، وخوفه الأعلى، ورجاءه الأخير؛ أن يتنازل الإنسان لهم عن ضميره، ويتوقع منهم نجاة لا يملكونها لأنفسهم. قد يكون بيت العنكبوت مأللاً. يجمعه الإنسان خيطاً فوق خيط، ثم يسكن إليه، حتى إذا مرض علم أن الأرقام لا تمنح جسده عافية، وإذا مات عرف أن الخزائن لم تستطع شراء لحظة.

وقد يكون منصّباً تحيط به الوجوه، وتفتح له الأبواب، فيظن صاحبه أن الناس يحبونه، فإذا زال المقعد انفضّ النسيج وعاد وحده.

وقد يكون شخصاً يعلّق القلب عليه معاني الأمان كلها، ويطلب منه ألا يتغير، وألا يرحل، وألا يعجز، كأنه ليس بشراً تجري عليه أقدار البشر. فإذا غاب انهدم العالم؛ لأن القلب أقام في المخلوق بيتاً لا يحتمل ثقل الألوهية الذي وضعه عليه. وقد يكون جماعة أو وطناً أو قوة أو شهرة أو معرفة. كل شيء يُرفع فوق قدره يتحول من نعمة إلى وثن، ومن سببٍ نافع إلى خيطٍ واهٍ.

﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾؛ الوهن ليس في الخيط منفرداً فحسب، فقد تكون مادته مدهشة في خصائصها، وإنما في كونه بيتاً لا يؤدي وظيفة البيت: لا يقي حراً ولا برداً، ولا يدفع خطراً، ولا يمنح أهله سكناً حقيقياً.

وهنا الدقة الباهرة: قد يمتلك الشيء قوة في جانب، ثم يكون عاجزاً تماماً عن أن يكون إلهاً أو ملاذاً نهائياً. المال قوي في الشراء، لكنه ضعيف أمام الموت. السلطان قوي في إصدار الأوامر، لكنه ضعيف أمام المرض. المحبة البشرية جميلة في المؤانسة، لكنها عاجزة عن منع الفراق. العقل قوي في الاكتشاف، لكنه محدود أمام الغيب إلا بنور الوحي.

نحن نظلم الأشياء حين نطلب منها ما لا تملك، ثم نكرهها لأنها خذلتنا. ولو وضعناها في مراتبها الصحيحة، لانتفعنا بها دون أن نعبدها، ولأحببناها دون أن نهلك بفقدها. ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾؛ لأن جذر التعلق الفاسد جهلٌ بحقيقة الله وحقيقة الخلق. من عرف الله علم أن القوة كلها تستمد منه، ومن عرف الخلق رحم ضعفهم ولم يسكن إليهم سكون العابد.

إن المعرفة بالله لا تجعل القلب قاسياً على الناس؛ بل تحبه فيهم دون أن يحملهم ما لا يطيقون. وحين يستند القلب إلى الله، يصبح أكثر قدرة على الحب؛ لأنه لا يحب الآخرين خوفاً من الوحدة، ولا يستعملهم سداً لفقره، بل يفيض عليهم من طمأنينته.

الفصل السادس والعشرون

الله يعرف كلَّ خيطٍ نسجه الوهم

بعد المثل تقول السورة:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

يعلم الله كل ما يتخذه الإنسان من دونه؛ الأصنام المعلقة، والأصنام التي لا أسماء لها. يعلم ذلك الخوف الذي يسكن وراء المجاملة، والطمع الذي يتخفى في هيئة ولاء، والشخص الذي لا يسجد له الجسد لكن يسجد له الضمير، والرغبة التي تتحول في القلب أمراً أعلى من أمر الله.

قد يخدع الإنسان نفسه، فيسمي عبوديته حكمة، وتنازله واقعية، وتعلقه مرضاً بالناس وفاءً؛ لكن الله يعلم حقيقة ما يدعو من دونه.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾؛ العزيز الذي لا يحتاج إلى شبكة تحمي، ولا إلى ولي يقويه؛ والحكيم الذي يضع كل شيء في موضعه. فمن احتمى بالعزيز لم يهن، ومن سلم أمره للحكيم لم يضع، وإن بدا له بعض الطريق مؤلماً.

العزة والحكمة هما ما تفتقر إليه الأوثان: فقد يملك المخلوق شيئاً من القوة، لكنه لا يملك الحكمة المطلقة؛ وقد يريد لك الخير، لكنه يعجز عنه؛ وقد يقدر على أمر، لكنه لا يعلم عاقبته. أما الله فعزته تنفذ ما شاء، وحكمته تضمن أن ما شاء ليس عبثاً.

ثم تقول السورة:

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾

المثل القرآني لا يزن الفكرة فحسب؛ إنه ينقلها من التجريد إلى مشهد يسكن الذاكرة. بعد أن تقرأ بيت العنكبوت، لا تعود قادراً على النظر إلى تعلقات القلب القديمة بالصورة نفسها؛ فقد وضعت الآية عليها ضوءاً يكشف خيوطها.

لكن رؤية الصورة لا تكفي:

﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾.

قد يحفظ الإنسان المثل ولا يعقله، ويردده ثم يعود إلى نسج بيته الواهي. فالعقل هنا ليس فهم الكلمات، بل عبورها إلى أعماق النفس، حتى تتحول معرفةً تغيّر موضع القلب.

العالم حقاً ليس من يعرف أن بيت العنكبوت واهٍ، بل من يتفقد البيوت التي أقامها في داخله، ثم يملك شجاعة الخروج منها إلى الله. العلم الذي لا يهدم وثناً في القلب قد يكون معلومةً زادت شبكة الوهم خيطاً جديداً.

وهكذا يصبح المثل مرآة: كلما مال القلب إلى غير الله ميل العبادة، رأى الخيط؛ وكلما خاف مخلوقاً فوق قدره، رأى الخيط؛ وكلما ظن أن نجاته بيد سببٍ مستقل، رأى الخيط.

حتى إذا أبصر الخيوط جميعاً، رفع يده إلى الحبل الذي لا ينقطع، وقال بقلبٍ ذاق هشاشة الأشياء:

يا رب، لا تجعل بيتي إلا عندك، ولا أمانى إلا بك، ولا اتكالي إلا عليك؛ فما سواك يضعف وإن بدا قوياً، ويغيب وإن وعد بالبقاء، أما أنت فالحي الذي لا يموت، والعزیز الذي لا یُغلب، والحكيم الذي لا یضلُّ من سلّم قلبه إليه.

الفصل السابع والعشرون

السماء ليست سقفاً لبیت العنكبوت

بعد أن كشفت السورة وهن البيوت التي ينسجها الإنسان من خوفه ووهمه، ترفع بصره إلى البناء الذي لا يختل:

﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾

هنا تقف السماوات والأرض في الجهة المقابلة لبیت العنكبوت. هناك خيوط واهية نسجها مخلوق محدود، وهنا كُونٌ ممتد خلقه الله بالحق. هناك مأوى يوهم بالحماية، وهنا نظام يحمل الكواكب والمجرات دون أن ينفرط عقده.

﴿بِالْحَقِّ﴾؛ لم يُخلق هذا العالم لعباً، ولم يُقذف الإنسان في الوجود بلا غاية. كل شيء يجري نحو مواعده، وكل ذرة واقعة في علم، وكل حياة محاطة بحكمة، وإن غابت بعض فصولها عن عيوننا.

ما أقسى أن يعيش الإنسان في كون خلق بالحق، ثم يبني حياته على الوهم! أن تكون النجوم منضبطة في أفلاكها، ويكون قلبه وحده تائهاً بين آلهة صغيرة؛ أن يرى الأرض تمسكها قدرة الله، ثم يظن أن مستقبله معلق بيد مخلوق لا يملك غده. خلق الله السماوات والأرض بالحق؛ ولذلك لا يمكن أن تكون النهاية فوضى، ولا أن يتساوى الظالم والمظلوم، ولا أن تمضي تضحيات الصادقين هباء. إن وجود الآخرة كامن في معنى الخلق بالحق؛ لأن العالم الذي بدأ بحكمة لا يُختم بعبث. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فالكون واحد أمام الأبصار، لكنه ليس واحداً في القلوب. ينظر المؤمن إلى السماء فيرى أثر القدرة، وينظر الغافل إليها فيرى فراغاً مضيقاً. ليست الآية غائبة، بل البصيرة التي تقرأها قد تكون غائبة.

المؤمن لا يرى الأشياء منفصلة عن الله. يرى الشمس نعمةً ودليلاً، والمطر رحمةً ورسالةً، والليل سترًا، والفجر وعداً متجدداً بأن الظلام مهما استحكم لا يملك حق البقاء.

الفصل الثامن والعشرون

من كتاب الكون إلى كتاب الوحي

بعد النظر في صفحة السماوات والأرض، تأمر السورة بتلاوة الكتاب الذي يعلم الإنسان كيف يقرأ الكون ونفسه:

﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾

﴿اتْلُ﴾؛ لا تمرّ على الوحي مروراً عابراً، بل اجعله صوتاً متجدداً في حياتك. التلاوة ليست حركة اللسان وحده، وإنما أن تتبع الروح المعنى كما تتبع العين السطر؛ أن يصير الكتاب أمامك طريقاً، لا نصّاً نتبرك بألفاظه ثم نترك أوامره وحيدة في الصفحات. القرآن لا يريد قارئاً يزداد به إعجاباً دون أن يزداد به تحوُّلاً. إنما نزل ليعيد ترتيب الأشياء في القلب: يصغر ما عظّمته الدنيا، ويعظم ما صغّره؛ يكشف بيوت العنكبوت التي سميها حصوناً، ويدلنا على الجبل الذي لا ينقطع.

ثم تأتي الصلاة:

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾.

لم يقل: أدّ الصلاة، بل أقمها؛ كأنها بناءٌ ينبغي أن ينهض في قلب الحياة. إقامة الصلاة أن يكون لها عمودٌ من حضور، وسقفٌ من خشوع، وأبوابٌ يدخل منها أثرها إلى السلوك. قد يؤدي الإنسان حرّكاتهما، لكن الصلاة لا تُقام فيه؛ تبقى منفصلةً عن غضبه، ومعاملاته، وخلواته، ونظراته إلى الناس.

الصلاة موعدٌ متكرر لإنقاذ القلب من الشبكة التي تنسجها الدنيا حوله. ففي كل يوم تتكاثر خيوط المال والخوف والهَمّ والصورة الاجتماعية، ثم يأتي النداء ليقطعها: الله أكبر. أكبر من الأمر الذي أربك، ومن الشخص الذي علق به رجائك، ومن الخسارة التي ظننتها نهاية، ومن النجاح الذي كاد يخدعك عن عبوديتك.

كل تكبيرة هدمٌ لوثن، إذا نطق بها القلب.

وحين يضع المصلي جبهته على الأرض، يكون في أدنى هيئة الجسد وأعلى مقام الروح. يتخلّى لحظة عن وهم السيطرة، ويعترف بأن أشرف ما فيه لا يجد عزته إلا حين يلامس التراب خضوعاً لخالفه.

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾؛ الصلاة الحية تبني في القلب حساسيةً تجاه القبح. لا تضع على اليد قيداً مادياً، لكنها تضع في الروح نوراً يجعل المعصية ثقيلة. من وقف بين يدي الله حقاً، استحي أن يخرج من محرابه ليقف في صف ما يبغضه الله.

لكن هذا النهي ليس أثراً آلياً لمجرد الحركة. فقد يصلي الإنسان، ثم يحمل معه إلى صلاته قلباً غائباً ويخرج كما دخل. ليست المشكلة في وعد الله، بل في الشيء الذي سميناه صلاةً ولم نقم منه إلا صورته.

الصلاة الصادقة لا تجعل صاحبها معصوماً من الزلل، لكنها تمنعه من أن يتصالح معه. إن وقع، أيقظته؛ وإن ابتعد، نادته؛ وإن تلطخ، فتحت له باب التطهر. فهي نهر يمر بالقلب خمس مرات، والقلوب تختلف في مقدار ما تفتح له من نوافذها.

ثم تأتي العبارة التي ترتفع فوق المعنى كله:

﴿وَلَذِكْرِ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

ذكر الله أكبر من كل ما يشغل القلب عنه، وأكبر من لذة المعصية التي تريد أن تستولي عليه، وأكبر من خوف الخلق، وأكبر من وهم النفس بقوتها. وإذا ذكرت الله في الأرض، ذكرك في الملاء الأعلى؛ وذكره لك أعظم من ذكرك له، ورحمته بك أسبق من التفاتك إليه.

إن الصلاة لا تؤثر في الإنسان لأنه يكرر كلمات، بل لأنها تعيد الله إلى مركز وعيه. وكل انحراف يبدأ لحظة ينسى القلب أن الله يراه، وأنه إليه راجع. فإذا عاد الذكر، عادت الأشياء إلى أحجامها الصحيحة.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾؛ لم يقل فقط: ما تفعلون، بل ﴿مَا تَصْنَعُونَ﴾، كأن الأفعال صناعةً يوميةً نبني بها أنفسنا. كل اختيار يضيف شيئاً إلى هيئة الروح، وكل سجدة صادقة تصلح في الداخل موضعاً، وكل خطيئة يصير عليها صاحبها تنسج خيطاً جديداً حول قلبه.

والله يعلم الصلاة التي أقمته، والصلاة التي أقامتك؛ يعلم الجسد الذي وقف، والقلب الذي ظل هائماً؛ ويعلم تلك الركعة التي دخلها العبد منكسراً، فخرج منها وقد جبر شيئاً لا يراه أحد.

الفصل التاسع والعشرون

الحوار الذي لا يفقد أخلاقه

ثم تنتقل السورة من بناء الداخل بالصلاة إلى لقاء الآخر في ساحة الحوار:

﴿وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾

لم يقل: لا تجادلوهم إلا بالحسنة، بل ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ كأن المطلوب ليس مجرد سلامة الأسلوب من القبح، بل بلوغ أجمل ما يمكن من البيان والرفق والعدل.

فالحقيقة لا تحتاج إلى سوء الخلق كي تنتصر، والوحي لا يرفع صوته لتعويض ضعف حجته. قد يملك الإنسان الدليل ويخسر القلب بسبب الطريقة التي قدّمه بها؛ فينتصر لنفسه في الخصومة، ويهزم المعنى الذي زعم أنه يدافع عنه.

الجدال بالتي هي أحسن لا يعني تمييع الحق، بل تقديمه في إناء يليق به. وضوح دون تجريح، وثبات دون كبر، وإنصاف لا يمنع من بيان موضع الخلاف. فالمؤمن لا يدخل الحوار ليجمع غنائم الغلبة، بل ليفتح نافذة لعل النور يعبر منها.

﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾؛ فالظلم يغيّر طبيعة الموقف. من خرج من ساحة الحوار إلى العدوان لا يواجه بالاستسلام، ومن جعل الجدل ستاراً للإيذاء لا يمنح فرصة لا تنتهي للعبث. الإحسان ليس سذاجة، والرفق لا يعني إلغاء العدل.

ثم تؤسس الآية أرضية اللقاء:

﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾.

الإسلام لا يبيّن ذاته على قطع سلسلة النبوات، بل يرى الوحي نهراً واحداً جرى في أزمنة متعددة. يؤمن بأصل ما أنزل الله على رسله، فلا تدفعه مخالفة أهل الكتاب إلى جحود الفضل الذي سبق، ولا تجعله خصوصية رسالته يلغي وحدة المنبع.

﴿وَاهْنًا وَاهُكْمٌ وَاحِدٌ﴾؛ فما أعمق أن يبدأ الحوار من الواحد! وراء اختلاف الشرائع والأزمنة تبقى البشرية مخلوقةً لإله واحد، محمولةً بنعمة واحدة، سائرةً إلى مرجع واحد.

﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾؛ ليست هويتنا في الجدل انتصار جماعة لجماعة، بل استسلامٌ لله. والعبد المستسلم لله لا يزور الحقيقة لينتصر، ولا يظلم مخالفه ليحمي ديناً حرم عليه الظلم.

الفصل الثلاثون

القرآن امتدادُ النور وتصديقُ الرسالات

تقول السورة:

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾

﴿وَكَذَلِكَ﴾؛ بالوحدة نفسها في المصدر، وبالاتساق العميق بين نداءات السماء، أنزل الله القرآن. لم يأت غريباً عن موكب النبوة، بل خاتماً يصدق أصول الوحي ويحرس معنى التوحيد من التحريف والنسيان.

ولهذا فإن الذين عرفوا حقيقة الكتاب السابق، ولم تحجبهم العصبية ولا المصلحة، وجدوا في القرآن الصوت الذي تعرفه أرواحهم. فالحق، مهما اختلفت لغاته، يحمل نبرةً واحدة يسمعها القلب الصادق.

﴿وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾؛ لا يغلق القرآن باب الهداية على جماعة بسبب انتمائها، ولا يحكم على الأفراد بأسماء الفئات. في كل بيئة قلبٌ يمكن أن يستيقظ، وعقلٌ قد يتحرر من الموروث، وروحٌ تنتظر الكلمة التي تعيدها إلى أصلها.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾؛ والجحود ليس مجرد عدم معرفة، بل تغطية لما لاحظ دلائله. قد يرى الإنسان الضوء، لكن يضع يده على عينيه لأن الطريق الذي يكشفه النور لا يوافق هواه.

المشكلة ليست دائماً نقص البرهان؛ فقد تكون كلفة الاعتراف به. الحق إذا دخل حياة الإنسان طلب منه أن يعيد ترتيب مصالحه وعلاقاته وصورته عن نفسه. ولذلك يرفض بعض الناس الدليل لا لأنه ضعيف، بل لأنه قويٌّ إلى الحد الذي يهدد البيت الذي بنوه من الأوهام.

الفصل الحادي والثلاثون

النبيُّ الأُمِّيُّ والكتاب الذي تحدَّى الشك

تواجه السورة شبهة الافتراء بحقيقة تاريخية واضحة:

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾

عاش النبي ﷺ بين قومه، عرفوا نشأته ومسيرته، ولم يكن قبل الوحي يتلو كتاباً ولا يخطه بيمينه. ثم جاءهم بهذا القرآن: بحره اللغوي، ونظامه العقدي، وبصيرته بالنفس والتاريخ، وخبره عن الأمم، وقدرته على بناء الإنسان والأمة.

من أين جاءت هذه الشمس؟

لو كان قارئاً للكتب السابقة أو متلمذاً على أهلها، لوجد المبطلون شبهةً ينسجون منها حكايتهم. لكن الله أقام الحجة في سيرته قبل أن يقيمها في كلامه؛ جعل أميته باباً يكشف أن الكتاب تعليم السماء، لا حصيلة مكتبة بشرية خفية.

ولم تكن الأمية نقصاً في مقام الرسالة، بل جزءاً من برهانها. فالذي لم يخط كتاباً بيمينه جاء بكتابٍ أعاد تشكيل التاريخ، وبقيت كلماته تقرأ القارئ نفسه، وتكشف له ما لم يعرفه عن قلبه.

﴿إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾؛ أما طالب الحق، فينظر إلى مجموع الدلائل. والمبطل لا يبحث عن الحقيقة، بل عن ثقبٍ صغير يمرر منه رييته؛ ولو أغلقت عليه الأبواب، صنع من الهواء باباً.

ثم تقول السورة:

﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يُجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾

القرآن كتابٌ مكتوب في المصاحف، لكنه يريد أن يكون آياتٍ في الصدور. الورق يحفظ رسمه، والصدر الحي يحفظ أثره. قد ينتزع المصحف من اليد، لكن الآية إذا استقرت في القلب صارت بصيرةً لا يمكن للظلام أن ينتزعها.

﴿فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾؛ العلم هنا ليس تكديس معلومات حول النص، بل أن يصبح النص نوراً في العالم الداخلي. يعرف الإنسان الآية حتى كأنها تعرفه؛ تأتيه عند الفتنة فتثبتته، وعند الحزن فتواسيه، وعند الغرور فتكسره، وعند الحيرة فتدله. وما أجمل أن يكون الصدر موضعاً للآيات بعد أن كان موضعاً للخواف! كل آية تسكنه تطرد خيطاً من بيت العنكبوت الذي نسجته الدنيا حوله.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾؛ لأن الجحود ظلمٌ للحقيقة، وظلمٌ للنفس التي حُرمت نورها، وظلمٌ للعقل حين يُجبر على إنكار ما أدركه كي يخدم رغبة القلب.

الفصل الثاني والثلاثون

لماذا يطلبون آيةً والآية بين أيديهم؟

قال المكذبون:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾
طلبوا آيات حسيةً مخصوصة، كأنهم مستعدون للإيمان لو رأوها. لكن تاريخ المكذبين يكشف أن المشكلة لم تكن ندرة الآيات؛ فكم من قوم رأوا المعجزة ثم سموها سحرًا! القلب الذي قرر ألا يؤمن يستطيع أن يحول كل دليل إلى شبهة.

﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ ليست المعجزة أداة في يد الرسول يستدعيها متى شاء ليستجيب لشروط المتعنتين. النبي عبدٌ يبلغ، والله هو الذي يختار للرسالة من الآيات ما يشاء بحكمته.

﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾؛ وضوح الرسالة هو مسؤوليته، أما كسر إرادة الناس حتى يؤمنوا فليس من شأن النبوة. فالآية لا تسلب الإنسان قدرته على الجحود؛ وإلا لم يعد الإيمان إيمانًا، بل إذعائًا قهريًا.

ثم يأتي السؤال الذي يضعهم أمام المعجزة الحاضرة:

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾؛ كأن طلبهم للآية البعيدة غفلةً عن الشمس القائمة بينهم. يريدون معجزة تقع مرةً ثم تصير خبراً، وقد أعطاهم الله كتاباً تتجدد معجزته كلما تلي، ويدخل إلى كل عصر بلغته، ويكشف للناس من معانيه بقدر ما تفتح قلوبهم.

إن المعجزة الحسية تخاطب عين اللحظة، أما القرآن فيخاطب الإنسان ما بقي الإنسان: عقله، وروحه، وضعفه، وغروره، وخوفه، وبحثه عن المعنى. كل جيل يفتح المصحف فيجد نفسه مذكوراً فيه، لا باسمه، بل بأعمق قوانين تكوينه.

﴿يَتْلَى عَلَيْهِمْ﴾؛ معجزة لا تعيش خلف حجاب التاريخ، بل تتحرك على الألسنة، وتطرق الأسماع، وتدخل البيوت. يستطيع الفقير أن يحملها، والبعيد أن يسمعها، والمكسور أن يجد فيها خطابه الخاص.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً﴾؛ القرآن رحمة لأنه لا يترك الإنسان لأوهامه. قد تكون الآية حادثة في كشفها، لكن المشرط رحمة حين يزيل المرض. وقد تهدم تصورات نجها، لكن البيت الواهي لا يكون الحفاظ عليه رحمة؛ الرحمة أن يُخرجنا الله منه قبل أن تأتي الرياح.

﴿وَذَكَّرَى﴾؛ لأن كثيراً من الحقائق لا تغيب عن الإنسان غيباً كاملاً، لكنها تُدفن تحت الركام. يأتي القرآن لا ليزرع في الفطرة شيئاً غريباً عنها، بل ليوقظ فيها معرفتها القديمة بربها.

الفصل الثالث والثلاثون

شهادةُ الله تكفي

حين أصرّوا على التكذيب، جاء الجواب:

﴿قُلْ كَفَى بِاللّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

يصل صاحب الحق أحياناً إلى مقامٍ لا يعود فيه محتاجاً إلى إقناع كل من حوله بصدقه. لقد قال كلمته، وأقام حجته، ثم استراح إلى شهادة الله.

﴿كَفَى بِاللّهِ﴾؛ إذا علم الله صدقك، فلا يضرك أن تسيء مدينةً كاملةً فهمك. وإذا شهد الله لك، فلا تجبر روحك على الوقوف الأبدي في محاكم الناس. هم يرون مقطوعاً من قصتك، والله يعلم ما في السماوات والأرض؛ يعلم دوافعك الخفية، والدمعة التي سبقت موقفك، والتمن الذي دفعته ولم يره أحد.

لكن هذا المعنى ليس ملاذاً لكل مدّعٍ يرفض النقد، بل سكينة من أدّى الأمانة وراجع نفسه واتقى الله، ثم لم يجد إنصافاً من الخلق. عندها يكفي أن الحقيقة ليست ضائعة لأنها لم تُصَفَق لها الجماهير.

ثم تكشف الآية انقلاب الموازين:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللّهِ﴾.

إنهم لم يعيشوا بلا إيمان؛ الإنسان لا يكاد يعيش بلا شيء يصدقه ويمنحه ولاءه. حين كفروا بالله، آمنوا بالباطل: آمنوا بقوة المال، وبخلود السلطة، وبحكمة الهوى، وبأن الدنيا مكتفيةٌ بنفسها.

من يرفض عبادة الحق لا يتحرر من العبادة، بل ينتقل إلى معابد كثيرة. يخرج من نور الواحد إلى ظلال المتعدد، ويقضي عمره موزعاً بين آلهة تتنازع قلبه.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾؛ الخسارة ليست فقط ما ينتظرهم في الآخرة، بل تبدأ من الداخل: أن يحمل الإنسان قلباً خُلِقَ لمعرفة الله، ثم يملأه بأشياء تموت؛ أن يمتلك قدرةً على الخلود، ثم ينفقها في خدمة اللحظة؛ أن يُدعى إلى بيتٍ لا يزول، فيصرّ على السكن في خيط.

الفصل الرابع والثلاثون

الذين يستعجلون النار لأنهم لا يرونها

تقول السورة:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

كانوا يطلبون العذاب استهزاءً، كما لو أن تأخره عجز. لكن لكل شيء عند الله أجلٌ مسمى؛ لا يتقدم لحظةً ولا يتأخر. إن الزمن ليس فراغاً تغلت فيه الأحداث، بل ميدانٌ مقدّر تجري فيه السنن إلى مواعيدها.

﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً﴾؛ لأن الإنسان يتوهم أن الشيء البعيد عن شعوره بعيدٌ في الواقع. قد يحيط به الخطر، لكنه لا يحس به؛ ويبنى خطط أعوام، بينما الموعد أقرب من خطته التالية.

المفاجأة لا تعني أنهم لم يندروا، بل إنهم لم يعيشوا الإنذار بقلوبهم. سمعوا الكلمات، لكنها لم تعبر إلى الشعور؛ ولذلك يأتي ما حذروا منه وكأنه لم يذكر قط.

ثم يتكرر المعنى ليكشف عمق الغفلة:

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾

يستعجلون ما هم محاطون بأسبابه! كمن يقف داخل بيت مشتعل ويسأل ساخراً: متى تصل النار؟ إن جهنم محيطَةٌ بهم بما أقاموا عليه من كفر، وإن لم تنكشف لأبصارهم بعد.

الخطيئة المستمرة ليست فعلاً يمر وينتهي، بل بناءٌ يحيط بصاحبه. كل جحود خيط، وكل ظلم خيط، حتى تصبح النفس داخل شبكةٍ من صنعها؛ ثم تتكشف الشبكة في الآخرة ناراً تحيط بها.

﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

من فوقهم ومن تحت أرجلهم؛ لا جهة للفرار، ولا موضعاً يتكئون عليه. كانوا في الدنيا يبحثون عن ولي ونصير يحيطان بهم بالحماية، فإذا بما اتخذوه من دون الله يتلاشى، ويحيط بهم العذاب من الجهات التي ظنوا أنها آمنة.

﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ لم تقل: ذوقوا عقوبة غريبة عن أعمالكم، بل ﴿مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. كأن الأعمال نفسها كانت تحمل في باطنها مذاق المصير، لكنهم لم يتذوقوه في الدنيا لأن الشهوة غطته. الظلم نارٌ مؤجلة الظهور، والحسد سمٌ يبدأ في روح الحاسد، والكذب ظلمةٌ تتكاثر حتى تصير عالماً كاملاً.

في الآخرة تسقط القشور، ويدوق الإنسان حقيقة ما صنع. ما بدا لذةً عابرة يكشف عن أله الكامن، وما بدا تضحيةً مؤلمة في سبيل الله يكشف عن نعيمه المستتر.

الفصل الخامس والثلاثون

أَرْضُ اللَّهِ واسعة... فلا تجعل المكان قيداً على روحك

بعد تصوير العذاب المحيط، تلتفت السورة إلى المؤمنين الذين ضاقت بهم أرض تمنعهم من عبادة ربهم:

﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾

يا لدفء النداء: ﴿يَا عِبَادِيَ﴾. قبل أن يأمرهم بالهجرة، نسبهم إليه؛ كأنه يمنحهم الوطن الأعظم قبل أن يطلب منهم مفارقة الوطن الأصغر.

قد يترك المهاجر بيتاً وأرضاً ووجوهاً، لكنه لا يخرج إلى المجهول؛ إنه يخرج وهو يحمل اسماً يضمّه: عبدُ الله. ومن كان عبداً لله فالأرض كلها ميدان عبادته، والسماء كلها فوقه سقف ملك ربه.

﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾؛ لا تجعلوا بقعةً من الأرض تتحول إلى سجن للإيمان. الأرض ليست ملك الطغاة وإن رفعوا عليها راياتهم، ولا ملك الحدود التي رسمها البشر؛ إنها أرض الله، وكل موضع يمكن أن يُعبد فيه الله وطنٌ للروح.

قد تتعلق النفس بالمكان حتى تظن أن رزقها وذكرياتها وهويتها مدفونة فيه. فتأتي الآية لتفك الارتباط بين الله والجغرافيا: ربك ليس رب القرية التي ولدت فيها وحدها، ولا رحمته محصورة في الأبواب التي اعتدت طرقها. حيثما ذهبت سبقتك ربييته.

﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾؛ تقديم ﴿إِيَّايَ﴾ يحسم الوجهة. إذا خُبرت الروح بين الأرض والعقيدة، فالأرض تُترك؛ وإذا صار البقاء ثمة أن يخني القلب لغير الله، فقد تحولت الألفة إلى وثن.

الهجرة ليست كراهية للأوطان، بل حماية للمعنى الذي يجعل الوطن كريماً. ما قيمة أرضٍ تحفظ جسدك وتمتلك روحك؟ وما معنى بيتٍ يؤويك من المطر ويطردك من رحمة الله؟

الفصل السادس والثلاثون

الموت الذي يلحق بالمقيم والمهاجر

قد يقول الخوف للمؤمن: إن خرجتَ متَّ، أو جعتَ، أو ضاع مستقبلُك. فتأتي الآية تقطع وهم النجاة بالبقاء:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾

الموت لا يحتاج إلى سفر كي يجد الإنسان، ولا تعوقه جدران البيت. من بقي يموت، ومن هاجر يموت؛ لكن الفرق ليس في وقوع الموت، بل في الوجهة التي مات الإنسان سائراً إليها.

﴿ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾؛ لم يقل: كل نفس يفنيها الموت؛ فالذوق لحظةٌ تعبر بها النفس إلى طور آخر. الجسد يهدأ، أما الحكاية فلا تنتهي. الموت بابٌ لا جدار، وانتقالٌ لا عدم. وحين يستقر هذا المعنى، يفقد الخوف كثيراً من سلطانه. الطغاة يملكون تهديد الجسد، لكنهم لا يملكون المصير. يستطيعون أن يضيقوا مساحة الحياة، لكنهم لا يستطيعون قطع الطريق إلى الله.

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾؛ أنتم مهاجرون في كل الأحوال، حتى الذين لم يخرجوا من قراهم. الزمن يحمل الجميع من الأرض إلى الله، وكل يوم مرحلةٌ من هذه الهجرة الكبرى.

ثم يأتي المشهد المقابل:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئُهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا يُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾

من ترك بيتاً لله، بوأه الله غُرَفًا في الجنة. ومن خرج من أرضٍ ضاقت بعبادته، أدخله أرضاً لا يضيق فيها نعيم، ولا يخاف فيها ساكنٌ من فراق.

﴿لَنَبْوِثَنَّهُمْ﴾؛ ليس دخولاً عابراً، بل إنزالٌ في منزلٍ مستقر، كأن رحلة الغربة كلها كانت تمهيداً للوطن الحقيقي. هناك لا بيت عنكبوت، ولا سقف مهدد، ولا عقد إيجار مع الزمن؛ خلودٌ لا يأتي بعده اقتلاع.

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾؛ الماء الذي حمل سفينة نوح، وأغرق المكذبين، يصير هنا نهراً من الطمأنينة. عناصر الكون نفسها تتغير دلالاتها بحسب علاقة الإنسان بربه. ﴿نَعَمْ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾؛ فالإيمان ليس أمانةً خاملة. الجنة أجر الذين حولوا يقينهم إلى عمل، وصبروا حين كانت الطاعة مكلفة، وحملوا إيمانهم في الطرق الوعرة. ومن صفاتهم:

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾

الصبر يحفظهم من الانهيار تحت ضغط الحاضر، والتوكل يحررهم من الخوف من المستقبل. الصبر ثبات القدم، والتوكل سكينه القلب؛ وإذا اجتمعوا، سار الإنسان في أصعب الطرق دون أن تنكسر وجهته.

لم تقل الآية: وعلى قوتهم أو خططهم يتوكلون، بل ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾. يأخذون بالأسباب كاملة، لكنهم يعرفون أن الأسباب قد تخذل، وأن رب الأسباب لا يخذل. التوكل ليس انتظاراً بلا عمل، بل عملٌ بلا عبودية للنتيجة. تبذل أقصى ما تستطيع، ثم لا تجعل سلام قلبك مشروطاً بما يحدث؛ لأنك سلمت الأمر لمن يعلم ولا تعلم، ويقدر ولا تقدر.

الفصل السابع والثلاثون

طيورٌ لا تحمل خزائنها

وأمام خوف الرزق الذي يشد الإنسان إلى أرض الذل، تقول السورة:
﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾
كم من دابة تخرج كل صباح لا تحمل معها مخزناً، ولا تملك حساباً للغد، ولا تعرف
أين تنتظرها حبتها، ومع ذلك لم تنقطع حركة الحياة. الطيور لا تحمل حقولها على
أجنحتها، والأسماك لا تخزن البحار في جوفها، لكن الرزاق يعلم موضع كل مخلوق
وحاجته.

﴿لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾؛ قد لا تقدر على جمعه أو ادخاره أو نقله، لكن عجزها لا يخرجها
من كفالة الله. الرزق ليس مكافأةً على القلق، ولا ثمرة السيطرة المطلقة التي يتوهمها
الإنسان. كم من حريصٍ فاتته ما طلب، وكم من ضعيفٍ جاءه رزقه من طريق لم
يفتحه!

لا تدعو الآية إلى ترك التدبير؛ فالدابة تخرج وتبحث. لكنها لا تحمل رزقها، بل يحملها
اليقين الفطري إلى مواضعه. السعي حركة العبودية، والرزق فعل الربوبية.
﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾؛ قدم الدواب لتكون مرآة للإنسان المغرور بقدرته. أنت لست
رازق نفسك، مهما أحكمت خطتك. إنما أعطاك الله عقلاً ويداً وأسباباً، ثم أجرى
رزقك خلالها. ولو سلبك القدرة على استعمالها، لعلبت أن كل حركة كنت تفتخر
بها كانت نعمةً سابقةً على كسبك.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾؛ يسمع دعاء المهاجر حين يقل زاده، ويعلم حاجته قبل أن
ينطق. يسمع خفق قلب الأم على أطفالها، ويعلم الطريق الذي سيأتي منه ما يكفيهم.
لا يضيع في ملكه مخلوق لأن عنوانه تغير، ولا ينقطع رزق عبد لأنه غادر باباً اعتاد
أن يأتيه منه العطاء.

قد يغلق الناس الباب القديم، لكنهم لا يملكون خزائن الله.

وهكذا تحرر السورة المؤمن من آخر خيوط البيت الواهي: خيط المكان، وخيط
الخوف من الموت، وخيط القلق على الرزق. تقول له: الأرض أرضي، والموت
رجوعٌ إليّ، والرزق عندي؛ فلماذا تقيم في الذل، وأبواب عبوديتي واسعة؟
إن الذي يهاجر إلى الله لا يخرج من الأمان، بل يخرج من وهم الأمان إلى حقيقته؛
من بيت العنكبوت الذي صنعه الألفه، إلى ظلّ الرب الذي يرزق الدابة في وكرها،
والإنسان في غربته، والقلب حين لا يبقى له إلا الله.

الفصل الثامن والثلاثون

حين يعترف اللسان بالخالق ويعبد القلب الأسباب

بعد أن حررت السورة المؤمن من الخوف على رزقه، تكشف تناقضاً عجيباً في نفوس المشركين: إنهم يعرفون أن الله خالق الكون، لكن هذه المعرفة لا تبلغ من قلوبهم موضع العبادة:

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَخَرَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾

لم يكونوا ينكرون أن الله هو الخالق. كانوا يرون السماء فيقولون: خلقها الله، ويرون الشمس والقمر فيقولون أنه سخرهما. لكن الاعتراف الذهني لم يتحول إلى استسلام قلبي.

وهنا تكشف الآية أن معرفة الله ليست مجرد إجابة صحيحة عن سؤال: من خلق العالم؟ قد يعرف الإنسان الجواب، ثم يعيش كأن غير الله يملك مصيره؛ يقرّ بالخالق في عقله، ويخاف المخلوق في قلبه؛ يعترف أن الله سخر الشمس والقمر، ثم يظن أن فلاناً من الناس يستطيع أن يقطع عنه رزقه أو يغلق أمامه أبواب القدر. إن المسافة بين الإقرار والتوحيد هي المسافة بين أن تعرف الحقيقة، وأن تعيد بناء حياتك عليها.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾، أجرام هائلة تجري بأمره، لا تتقدم ولا تتأخر، ولا تخرج عن مداراتها. فإذا كان الله قد سخر هذه العوالم العظيمة، فكيف يتوهم الإنسان أن أمره الصغير قد أفلت من التدبير؟

إن الشمس التي تضيء قارات كاملة لا تشرق بقوتها الذاتية، والقمر الذي يتبعه المد والجزر لا يملك لنفسه مساراً؛ فكيف يدّعي الإنسان استقلالاً في ملك الله، وهو لا يملك أن يأمر قلبه بنبضة إضافية إذا جاء أجله؟

﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾؛ كيف يُصرفون عن النتيجة التي تقود إليها مقدماتهم؟ إذا كان الله هو الخالق والمُسَخِّر، فهو وحده المستحق أن يكون قبلة القلب، وملجأ الخوف، ومقام الرجاء. لكن الهوى يستطيع أن يفصل في عقل الإنسان بين الحقائق، فيؤمن بأولها ويرفض لوازمها.

إن الوثنية لا تبدأ دائماً بإنكار الله، بل قد تبدأ بإبقاء الله اسماً في السماء، ثم توزيع وظائف الألوهية على أهل الأرض.

الفصل التاسع والثلاثون

الرزق لا يدل دائماً على الرضا

تقول السورة:

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

يسط الله الرزق، ويضيقه؛ لا عن جهل بأحوال عباد، بل بعلم كامل بما يصلحهم ويمتحنهم ويكشف ما فيهم. قد يكون الاتساع اختباراً أشد من الضيق، وقد يكون المنع حمايةً تخفي، وقد تكون النعمة استدراجاً لمن قابلها بالجحود.

الإنسان يرى مقدار الرزق، ولا يرى شبكة الحكمة الممتدة وراءه. يرى فلاناً قد اتسعت دنياه، فيظن أن الله اصطفاه، ويرى صالحاً قد ضيق عليه، فيحسب أن الله أهانه. لكن المال لا يصلح وحده مقياساً للمحبة؛ فقد يعطي الله الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، ولا يمنح نور القرب إلا لمن فتح له قلبه.

﴿وَيَقْدِرُ لَهُ﴾؛ أي يضيقه بقدر، لا فوضى ولا نسياناً. حتى الضيق مقدرٌ بعلم، وله حدود لا يتجاوزها إلا بإذن الله. قد يحرمك من باب لأن وراءه فتنة لا تراها، أو يؤخر عنك أمراً حتى تنضج لاستقباله، أو يفرغ يدك من شيء كي يمتلئ قلبك به. ليس كل عطاء إكراماً، ولا كل منع إهانة. الإكرام الحقيقي أن يحفظ الله قلبك معه في العطاء والمنع؛ إذا أعطاك شكرت، وإذا منعك لم تسيء به الظن.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ يعلم ما يفعله المال بروحك، وما تفعله الحاجة بدعائك، وما الذي يصلحك، وما الذي يوقظ فيك غفلتك. وقد تطلب نعمة لو جاءت قبل أوانها أفسدت فيك ما تبنيه السنون.

التوكل ليس أن تضمن السعة، بل أن تطمئن إلى علم الله في السعة والقدر معاً.

الفصل الأربعون

المطر الذي يحيي الأرض... والسؤال الذي لا يبلغ القلب

ثم يعود القرآن بهم إلى اعتراف آخر:

﴿وَلَيْتَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾

كانوا يعلمون أن الله ينزل الماء، وأنه يحيي به الأرض؛ لكن المطر الذي أيقظ التراب لم يوقظ قلوبهم. نزلت النعمة على الأرض فأزهرت، ونزل معناها على الروح فبقيت يابسة.

ليس العقل أن تعرف السبب الأعلى بلسانك فقط، بل أن تنتقل من المعرفة إلى الشكر، ومن رؤية النعمة إلى عبادة المنعم. ولهذا جاء الأمر:

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

الحمد هو الجسر الذي تعبر به النعمة من اليد إلى القلب. قد يأكل الإنسان رزق الله، ويشرب ماءه، ويمشي على أرضه، ثم لا يبلغ من كل ذلك معرفةً به. فإذا قال: الحمد لله بقلب حاضر، رد الأشياء إلى مصدرها، ولم تعد النعم حجاباً عن المنعم. كم من نعمة أخذها الإنسان فابتعد بها عن الله، وكم من ألم أعاده إليه! ليست القضية في صورة العطاء، بل في الوجهة التي يصنعها داخلنا.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾؛ لأنهم توقفوا عند نصف الحقيقة. عرفوا أن الله ينزل المطر، لكنهم لم يسألوا: إذا كان هو الذي يحيي الأرض، فلماذا لا نطلب منه حياة القلب؟ وإذا كانت القطرة الميتة في نظرنا تفتح في التراب هذا الجمال كله، فما الذي يصنعه الوحي إذا نزل على صدرٍ مستعد؟

القلب كالأرض؛ قد يقسو حتى يبدو أن لا حياة فيه، ثم تنزل عليه آية في ساعة صدق، فيتشقق عن ندمٍ ورجاء، وينبت فيه من اليقين ما لم يكن يتوقعه صاحبه.

فلا تيأس من أرض قلبك. الذي أحيا التراب بعد موته قادرٌ أن يحيي فيك ما ظننت أنه مات: خشوعك، وشجاعتك، وثقتك، ولذة قربك منه.

الفصل الحادي والأربعون

الدنيا... هو يزول ولعبٌ ينفضُّ

بعد أن ذكرت السورة الرزق والمطر والحياة، تضع الحياة الدنيا كلها في ميزان الآخرة:

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِیَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

لا تعني الآية أن كل ما في الدنيا تافه؛ ففيها الوحي والصلاة والحب والتضحية والعمل الصالح. وإنما تكشف حقيقتها إذا قُطعت عن الآخرة وأُخذت غايةً نهائيةً. عندها تصبح لهواً يشغل عما خلق الإنسان له، ولعباً تنتهي قواعده عند الموت. اللعب قد يكون شديداً في نفوس لاعبيه؛ يفرحون ويغضبون، ويتخاصمون على قطعه، ثم ينتهي الوقت فيتركون كل شيء في مكانه ويغادرون. هكذا الدنيا: يتقاتل الناس على حدودٍ مؤقتة، ويتباهون بألقابٍ يخلعونها عند باب القبر، ويجمعون أشياء لا تدخل معهم إلى حفرتهم.

ليس عيب اللعب أنه بلا نظام، بل أنه بلا بقاء. وكذلك الدنيا تمتلك قوانينها ومكاسبها وخسائرها، لكنها لا تستحق أن يضع الإنسان فيها المعنى الأخير لحياته. ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِیَ الْحَيَوَانُ﴾؛ أي الحياة الكاملة الحقيقية التي لا يتخللها موت، ولا يهدد نعيمها زوال. هذه الدنيا تحمل الحياة والموت معاً؛ كل ولادة فيها تبدأ معها رحلة الفناء، وكل اجتماع يسير في باطنه نحو الفراق. أما الآخرة فهي الحياة التي لا يأكل الزمن أطرافها.

نحن الآن لا نعيش الحياة مكتملة، بل نتذوق شذرات منها: فرحةً سرعان ما يعكرها خوف، وصحةً يطاردها المرض، ولقاءً يقف الفراق خلفه. هناك تفصل الحياة عن أعدائها، ويزول القلق من الزوال.

من عرف هذا لم يترك الدنيا، بل وضعها في موضعها. يعمل فيها بإتقان، لكنه لا
يعبد نتائجها؛ يحبّ فيها بصدق، لكنه يعرف أن كمال اللقاء هناك؛ يتألم، لكنه لا
يرى الألم خاتمة؛ ويفقد، لكنه يعلم أن ما عند الله لا يُفقد.
﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾؛ لو علموا حقيقة الآخرة، لما باعوا الحياة باللعب، ولا الدائم
بالزائل، ولا البيت الباقي بخيطٍ تهزه الريح.

الفصل الثاني والأربعون

في السفينة يسقط الشرك من القلب

ثم ترسم السورة مشهداً نفسياً بالغ الصدق:
﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِّ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾

في البر تبدو الأسباب كثيرة: مَالٌ وأهلٌ وقوةٌ وأصنامٌ وحلفاء. يستطيع الإنسان أن يوزع ثقته بينها، وأن يتوهم أن العالم مستقر تحت قدميه. لكن حين يركب البحر، وترتفع الأمواج، وتقطع الأسباب، تسقط من قلبه الآلهة المصنوعة، ولا يبقى إلا الله.

﴿دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾؛ الخطر يجرد الفطرة من الزينة التي غطتها. لا ينادي الغريق صمناً يعلم في عمقه أنه لا يسمع، ولا يتعلق بنظرية فلسفية، بل يصرخ: يا الله. كأن التوحيد حقيقة مدفونة في أعماق الإنسان، فإذا هدمت العاصفة السطوح ظهرت. المشكلة ليست دائماً أن البشر لا يعرفون الله، بل أنهم يعرفونه ثم تغطي معرفتهم طبقات الرخاء والاعتیاد.

إن للهمنة قدرةً على اختصار المسافات؛ ما كانت المواعظ لتبلغه في سنوات، قد تفتحه موجة واحدة في لحظة. حين يشعر الإنسان بعجزه الكامل، تسقط عنه ألوهية نفسه، ويصير دعاؤه نقياً من الاستعراض.

لكن المأساة تبدأ بعد النجاة:

﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

ما أسرع ما يعود القلب إلى غفلته حين تجف ثيابه! ينسى اليد التي أخرجته من الموج، ويعيد بناء بيت العنكبوت على الشاطئ. كأن الخطر وحده كان يذكّره بالله، فإذا عاد الأمان عاد إلى آلهته الصغيرة.

والفتنة ليست في البحر فقط؛ البر فتنةٌ أيضاً. في البحر يُمتحن القلب بالخوف، وفي البر يُمتحن بالنعمة. وقد ينجح الإنسان في دعاء الضرورة، ثم يفشل في شكر النجاة. الإيمان الناضج ألا يحتاج في كل مرة إلى عاصفة كي تعرف ربك؛ أن تحمل إخلاص البحر معك إلى البر، وأن تذكر في ساعة السعة من ناجيته في ساعة الغرق. كم نذر الإنسان عند الكرب، ثم لما كشف الله عنه عاد كأُن شيطاناً لم يكن! يتعامل مع الرحمة كأنها خدمةٌ استهلكها، لا عهدٌ جديد كان ينبغي أن يغيّر حياته.

الفصل الثالث والأربعون

النجاة التي قابلوها بالكفران

تقول السورة:

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾

بعد النجاة كان ينبغي أن يكون الشكر، لكنهم جعلوا العطاء مادةً للكفر. استعملوا الحياة التي وهبها الله لهم في الابتعاد عنه؛ واستندوا إلى النعمة لينكروا المنعم. ما أشد انقلاب الفطرة حين تتحول العافية إلى حجاب، والرزق إلى غرور، والنجاة إلى نسيان! كأن الإنسان يقول بعمله: يا رب، احتجت إليك حين كنت أغرق، أما وقد ثبتت قدمي على البر فلا حاجة لي إليك.

﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾؛ ليس التمتع مذمومًا في ذاته، ولكن المذموم أن يصير كل المشروع الإنساني؛ أن يعيش المرء للأكل واللذة والاقتناء، كأن الروح لم تُخلق لمعرفةٍ ولا لقاء. عندها لا يختلف التمتع عن استهلاك قصير الوقت قبل انكشاف المصير. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾؛ تهديدٌ هادئ، لكنه يحمل يقيناً ثقیلاً. ستتحوّل المعرفة التي رفضوها اختياراً إلى معرفةٍ يفرضها المشهد؛ غير أن المعرفة بعد انقضاء فرصة العمل لا تنجي.

كان يمكنهم أن يعلموا بالوحي، فأصروا أن يعلموا بالعاقبة.

الفصل الرابع والأربعون

الحرم الآمن... والقلوب التي تؤمن بالخوف

تذكّرهم السورة بنعمة تحيط بهم:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخْتَفِ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبَالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾

من حولهم اضطرابٌ وخطف، وهم يعيشون في حرم آمن. يرون الفرق بأعينهم، لكنهم لا يعبرون من النعمة إلى المنعم. يأخذون الأمان كأنه خاصية ذاتية للمكان، وينسون من جعله آمناً.

﴿أَنَا جَعَلْنَا﴾؛ فالآمن ليس مجرد نتيجة للأسوار والقوة. كم من مدينة امتلكت الحصون ثم دخلها الخوف من شقوق لم ترها! وكم من قلب عاش في موضع مضطرب وحفظه الله بسكينة لا تملكها الجيوش!

الآمن نعمة خفية لا يشعر بها الإنسان إلا حين يفقدها. ينام ثم لا يحمده الله على أن الليل مرّ دون فزع، يخرج ثم يعود إلى بيته كأن العودة حقّ مضمون، ويستيقظ في جسده وروحه فيحسب السلامة أمراً عادياً.

ثم تأتي المفارقة:

﴿أَفَبَالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾.

آمنوا بما لا يملك لهم أمناً، وكفروا بمن أحاطهم بالأمان. صدّقوا الأصنام والأوهام والتقاليد، ولم يصدقوا دلالة النعمة التي يعيشون داخلها.

وهكذا يختل العقل حين يتبع الهوى: يمنح ثقته لما لم يصنع له شيئاً، وينسى من لا تقوم حياته إلا بعطائه.

إن كل نعمة حجةٌ لطيفة. لا تصرخ في وجه الإنسان، بل تحيط به في هدوء: نبضه، وهواؤه، وقطرة الماء، وسقف البيت، ووجهه يحبه، وليلةٌ مرّت بسلام. فإذا لم يقرأ هذه الرسائل، عاش غارقاً في فضل الله وهو يسأل: أين الدليل عليه؟

الفصل الخامس والأربعون

أعظمُ الظلم أن يكسو الإنسانُ كذبه باسم الله

ثم تسأل السورة:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾

هناك صورتان للظلم تلتقيان في العدوان على الحقيقة: أن ينسب الإنسان إلى الله ما لم يقله، أو أن يكذب بما قاله الله حين يأتيه.

الأول يصنع باطلاً ثم يلبسه ثوب القداسة؛ والثاني يرى الحق ثم ينزعه من مقامه. هذا يضيف إلى الوحي ما ليس منه، وذاك يمحذ ما ثبت فيه. وكلاهما يريد أن يجعل الله تابعاً لهواه.

﴿افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾؛ ما أثقلها من جناية! قد يكذب الإنسان لمصلحة عابرة، لكن أن يجعل الله شاهداً على كذبه، وأن يمنح رأيه البشري مهابة الوحي، فذلك استغلالٌ لأقدس ما في ضمير الناس.

كم من ظلم مورس باسم الله والله منه بريء! وكم من هوى قديم للناس كأنه حكم السماء! ولهذا كان العلم أمانة وخشية، لا باباً للسيطرة. من تكلم عن الله ينبغي أن يرتجف قلبه أن ينسب إليه ما لم يأذن به.

والصورة الأخرى:

﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾.

لم يذهب لبحث عن الحق، بل جاءه الحق إلى بابه، فرفضه. والجناية تشتد بوضوح الحجة وقربها؛ لأن التكذيب بعد الجيء ليس جهلاً خالصاً، بل موقفٌ أخلاقي من النور.

﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾؛ المَثْوَى مقامٌ ممتد. فالذي أبى أن يجعل قلبه
موطنًا للحق اختار لنفسه موطنًا آخر. ليست الآخرة غريبةً عن خيارات الدنيا، بل
ظهورٌ كامل للبيت الذي كان الإنسان يبنيه في الخفاء.

الفصل السادس والأربعون

المجاهدة التي تفتح الطرق المغلقة

ثم تأتي خاتمة السورة، كأنها الثمرة التي انتظرها الرحلة كلها:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾

بدأت السورة بالفتنة:

﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾

وتنتهي بالمجاهدة والهداية والمعية. بين البداية والنهاية رحلة الإنسان من الكلمة إلى

الحقيقة، ومن الادعاء إلى الثبات، ومن الخوف من الخلق إلى الأُنس بالله.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا﴾؛ لم تقل: الذين وصلوا، ولا الذين لم يخطئوا، ولا الذين امتلكوا

القوة كاملة. قالت: ﴿جَاهَدُوا﴾؛ بذلوا وسعهم، وقاوموا ضعفهم، وعادوا بعد

عثرتهم، ولم يسمحوا للطريق الطويل أن يقنعهم بالتراجع.

إن الله لا يطلب منك أن تبدأ كاملاً؛ يطلب أن تبدأ صادقاً. لا يشترط ألا تتعب،

بل ألا تجعل التعب نهاية المسير. قد تتباطأ خطاك، وقد تبكي في الطريق، وقد تضل

عن المسار لحظة؛ لكنك ما دمت تجاهد للعودة فأنت داخل الوعد.

والمجاهدة أوسع من ميدان القتال؛ إنها صراع الإنسان كي يبقى قلبه حراً لله. أن

يجاهد خوفه حين يضحك الناس، وهواه حين يزين الخطيئة، ويأسه حين يطول البلاء،

وكبره حين تأتي النعمة، وتعلقه حين يبدأ في نسج بيتٍ واهٍ حول مخلوق.

قد تكون أعظم معاركك في غرفةٍ لا يراك فيها أحد؛ حين يكون الذنب قريباً، ولا

يمنعك منه إلا علمك بأن الله يراك. وقد تكون في كلمة حق تخشى ثمنها، أو في عفوٍ

تقدر على خلافه، أو في صبرٍ لا يسمع أُنينَه إلا الله.

﴿فِينَا﴾؛ هذه هي روح المجاهدة. ليست للنفس، ولا للمجد، ولا للغلبة، ولا ليقال:

شجاعٌ أو عابدٌ أو ثابتٌ؛ بل في الله، ومن أجله، وعلى طريق رضاه.

قد يتشابه عملان في الظاهر، ويفصل بينهما هذا الحرف القصير: ﴿فِينَا﴾. أحدهما يرفع صاحبه لأنه قصد الله، والآخر يثقله لأنه قصد نفسه.

ثم يأتي الوعد مؤكّداً:

﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾.

لم يقل: سبيلاً واحداً، بل ﴿سُبُلَنَا﴾؛ أبوابٌ متعددة من الهداية يفتحها الله لمن صدق في المجاهدة. يهديه إلى الفكرة الصحيحة، والموقف الصحيح، والصحبة التي تعينه، والباب الذي لم يكن يراه، والكلمة التي تأتي في وقتها، والفهم الذي يولد بعد حيرة طويلة.

الهداية ليست دائماً نوراً يسقط كاملاً قبل الخطوة؛ كثيراً ما تأتي أثناء السير. يريد الإنسان أن يرى الطريق كله كي يبدأ، ويريد الله منه أن يخطو بما ظهر له، ثم يفتح له ما بعد الخطوة.

إن بعض الطرق لا تكشف نفسها للواقفين.

كلما جاهد العبد في معلوم الحق، علّمه الله ما لم يكن يعلم. وكلما عمل بالنور الذي بين يديه، زاده نوراً. أما الذي ينتظر يقيناً لا يسبقه أي تعب، فقد يظل واقفاً عند باب الطريق وهو يشكي أن الطرق مغلقة.

﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ﴾؛ لم يقل: ليهتدّن بقوتهم، بل نسب الهداية إليه. المجاهدة منك، والفتح منه؛ الخطوة منك، والطريق من فضله؛ الصدق منك، والثبات عطاؤه.

ولولا هدايته ما عرفنا كيف نجاهده، ولولا إعانتة ما ثبتنا لحظة. حتى طاعتنا نعمة تحتاج إلى شكر، لا إنجازاً يحق لنا أن نتعالى به.

ثم خاتمة الخاتمة، وموضع السكينة كلها:

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾

ليست المعية جائزةً مؤجلةً فحسب؛ إنها صحبة الطريق. قبل أن تصل إلى الجنة، يمنحك الله ما يعينك على المسير إليها: يكون معك بعلمه ونصره وتأييده ورعايته.

قد تكون وحيداً في عين الناس، لكنك لست وحدك. كان نوح وحده أمام قرون التكذيب، وكان الله معه. وقف إبراهيم أمام النار، وكان الله معه. عاش لوط غريب الطهر في مدينة الفساد، وكان الله معه. واجه شعيب سوقاً بنى منافعه على الغش، وكان الله معه. وخرج موسى أمام قارون وفرعون وهامان، وكان الله معه. وما الذي يضرك إذا كان الله معك، وإن فقدت من ظننتهم السند؟ وما الذي ينفعك إذا انفضّ الناس عنك لأنك لم تسكن معهم في بيت العنكبوت؟ ﴿مَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، وأن تفيض على الخلق خيراً لأنك تعلم أنه يراك. هو جمال العلاقة بالله، وجمال الأثر في الحياة؛ صدق بلا قسوة، ورحمة بلا ضعف، وثبات بلا كبر. المحسن لا يكتفي بأن ينجو بنفسه، بل يترك في الطريق نوراً يعين غيره على النجاة.

الخاتمة

حين يخرج القلب من بيت العنكبوت

ها نحن نبلغ نهاية السورة، لكن معناها الحقيقي يبدأ حين نغلق صفحاتها ونعود إلى بيوتنا الخفية.

تسألنا سورة العنكبوت: ممّ نسجت أمانك؟

هل نسجته من مالٍ قد يذهب؟ أم من مكانةٍ تنتهي بانصراف الوجوه؟ أم من شخصٍ تحبه لكنه عاجز عن أن يضمن لنفسه البقاء؟ أم من جماعةٍ تمنحك قوتها ما دمت تخدم صورتها؟ أم من عقلٍ توهم أنه قادرٌ وحده على عبور غيب الوجود؟ أم من جسدٍ يتقدم كل يومٍ نحو ضعفه؟

لا تقول لك السورة: لا تملك مالاً، ولا تحب شخصاً، ولا تنتم إلى جماعة، ولا تأخذ بالأسباب. إنها تقول: لا تتخذ شيئاً من ذلك رباً صغيراً. لا تمنحه خوفك الأعلى، ولا رجاءك الأخير، ولا طاعتك المطلقة، ولا الموضع الذي لا يتسع إلا لله. ضع الأشياء في يديك، وأبق الله في قلبك.

فإذا ذهب ما في اليد، بقي القلب عامراً بمن لا يذهب. لقد بدأت السورة بإنسان يقول: ﴿أَمَنَّا﴾، ثم جاءت الفتنة تسأل عن وزن الكلمة. ومضت تعرض وجوه الامتحان كلها: أذى الناس، وضغط الوالدين، وإغراء الجماعة، وخوف الرزق، ووحشة الهجرة، وطول الطريق، واستكبار القوة، وزينة المال، وفساد الشهوة، وغرور الحضارة.

ثم مرّت بنا على قافلة الأنبياء؛ لنعلم أن الإيمان لم يكن يوماً زينةً في زمن الرخاء، بل سفينةً تُبنى وسط السخرية، وناراً تُعبر باليقين، وهجرةً إلى الله، وكلمةً تقال في وجه مدينةٍ كاملة، وميزاناً يُصلح حين يفسد السوق، وعصاً تقف أمام عرش الطاغية. إن الفتنة في السورة ليست نقيض الرحمة؛ قد تكون أداة الرحمة التي تخرجنا من البيوت الوهمية قبل أن تنهار علينا. لولا الريح، ل بقي العنكبوت يظن خيطه قصراً. ولولا الشدة، ل بقي الإنسان يظن أن ما حوله يحميّه بذاته.

تأتي الفتنة، فتسقط الأسماء اللامعة عن الأشياء، وتظهر حقائقها: المال سبب، والناس أسباب، والقوة سبب، والوطن سبب؛ أما المسبّب والحافظ والولي والنصير فهو الله.

والذين اتخذوا من دونه أولياء لا يعيشون بلا بناء؛ إنهم ينسجون، ويتعبون، ويصلون خيطاً بخيط، ثم يسكنون داخل ما صنعوا. وربما بدت شبكتهم متقنة، ممتدة، مملوءة بالعلاقات والحسابات. لكن البناء الذي غاب عنه الله غاب عنه سرُّ الثبات.

والمؤمن قد يسكن بيتاً صغيراً في الأرض، لكنه يعيش في حصنٍ لا تراه العيون. حصنه أن يعلم أن رزقه عند الله، وأن أجله إلى الله، وأن مرجعه إلى الله، وأن

الأرض أرض الله، وأن القوة قوة الله، وأن القلب إذا آوى إليه لم يعد يتيماً في هذا الوجود.

قد يخاف المؤمن؛ لكن خوفه لا يقطع حبله بالله.
وقد يحزن؛ لكن حزنه لا يقنعه أن الرحمة غابت.
وقد يضعف؛ لكنه يعرف الباب الذي يعود منه.
وقد يهاجر وحيداً؛ لكنه يمضي إلى ربه.
وقد يتأخر عنه النصر؛ لكنه لا يفسر التأخير نسياناً.
وقد لا يرى الطريق كاملاً؛ لكنه يجاهد، فيفتح الله له السبل.

وهذا هو السلام الذي تسكبه السورة في القلب الحائر: ليس مطلوباً منك أن تعرف كل شيء، بل أن تعرف من بيده كل شيء. وليس مطلوباً أن تملك الطريق، بل أن تصدق في السير إلى مالكة. وليس عليك أن تمنع العاصفة، بل أن تختار البيت الذي لا تهدمه العواصف.

فإذا ضاقت بك الأرض، فتذكر:
﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾.

وإذا خوّفك الناس على رزقك، فتذكر:
﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا إِيَّاهُ﴾.

وإذا أحاطت بك الوحشة، فتذكر:
﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

وإذا طال الطريق ولم تعرف أين تكون الخطوة التالية، فضع قدمك في المساحة التي أضاءها الله لك، وجاهد ضعفك، وقل بقلب مستسلم:

إن الذي هداني إلى أول الطريق لن يتركني في منتصفه.

ثم استمع إلى الوعد الأخير، لا بوصفه آيةً تحتم السورة فحسب، بل يداً من الرحمة تمتد إلى كل قلب متعب:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

هنا يهدأ القلب.

فالطريق ليس موحشاً ما دام الله مع السائرين، والفتنة ليست نهايةً ما دامت تهدي إلى اليقين، والخسارة ليست خسارةً إذا ردت القلب إلى ربه.

وحين تهبُّ الريح الأخيرة، وتسقط البيوت التي بنتها الأيدي، يبقى بيتٌ واحد لا يزول: أن يكون القلب عند الله، وأن يكون الله وليه، وأن يمضي العبد إليه وقد تحرر من كل خيط، إلا حبل العبودية الذي لا ينقطع.

فطوبى لقلبٍ خرج من بيت العنكبوت قبل أن ينهار، وآوى إلى العزيز الحكيم.

وطوبى لغريبٍ لم يجد في الأرض مأمناً، فاكشف أن معية الله وطن.

وطوبى لمن جاهد، ولو بقدمٍ دامية؛ فإن وراء المجاهدة هداية، ووراء الصبر جنة،

ووراء وحشة الطريق رباً يقول لعباده الصادقين:

أنا معكم.